رواية

رَجِيم

د. أحمد مصيلحي

ساحر الكتب
للنشر و التوزيع

عام ١٩٦٠م.

يجلس الحاج على الصالح في أرضه الزراعية بجواره ماشيته على ضفاف النيل، جالسًا أرضا بعد أن أدى فرائضه وطقوس صلواته داعيًا ربه أن يرزقه بولي العهد سنده، مستغفرًا ربه على ما فات من العمر، ومن ذنوب اقترفها فاعتاد الجلوس دومًا بعد أن يخيم الليل بسكناته على كل من دبت به الحياة ليبدأ إشعال النار بالحطب للتدفئة، ولا يخلو الأمر من براد الشاي النحاسي كخير جليس ونيس، يأتيه صوتًا من بعيد مناديًا:

«أبا الحاج، أبا الحاج صالح، مبروك يا أبا الحاج صالح».

«ايه يا ولد ما لك؟ في ايه يا ولدي».

«مبروك، الولد، الولد».

تمالك صالح ما فرط منه أرضا من أعصابه متحاملًا على قدميه ليطمئن على زوجته وطرحها، محدثًا حاله طيلة الطريق، الآن رزقت بولي العهد، فمن شدة سعادته ولو كان الأمر بيده لنزل وحمل حماره ليسرع بخطواته لهدية.

«على المهل يابا الحاج هنتقلب من على الحمارة».

«ماتخفش يا عليوة، ماتخفش يا وش الخير والسعد».

«أنا عاوز الحلاوة يا حاج».

«عيني يا عليوة، عيني».

«مبروك يا هدية، مبروك، أنا دلوقت عرفت إن ربي راضي عني، ألف حمد وشكر ليك يا رب».

«مبروك يا أبو الواد، يتربى في عزك يا صالح».

بحروف متلعثمة ممزوجة بآثار الوضع، بالكاد استطاعت هدية تهنئة صالح.

«في حياتك يا هدية».

«هتسميه ايه يا حاج».

«شمعون، شمعون الصالح».

«شمعون! ايه شمعون ده يا حاج».

«شمعون ده الخير والرزق كله يا هدية، أنا حلمان بشمعون قبل ما يشرف للدنيا بسنين، وياما عاندت، خلينا المرة دي نسميه شمعون، ما دام ربنا كرمنا بيه حي يا هدية».

«الواد ولدك ويتربى في كنفك وعزك يا حاج».

لم تستطع هدية الدخول في نقاش حول اسم مولودها، فللتو لفظت جنينها خارجها بعد صراع مع القدر، فكل ما أنبته صالح داخلها يستقبل الحياة جثة هامدة

فربما الاسم غير المستصاغ لها يكون سبب للحياة لمولودها الجديد، فربما يتغير مصيره الحتمي عن مصير من سبقوه من أشقاء.

******

«ماتقلقش يا شمعون، فات الكتير ومافضلش إلا القليل، وخضوب في ضهرك، سندك وعمرها ما هتسيبك، البلد كلها لازم تشوف حزنك على أبوك وأمك، بدور لازم تحس بسكينة الحزن بتدبحك.

ماتقلقش يا شمعون، ودلوقت خد الورقة دي اقراها تلات مرات في ودن الحاج علي صالح، وتلات مرات في ودن الحاجة هدية، واحرق الورقة باللي فيها، وبخرهم بدخانها وأنت بتقول:

«بحق خالق النار، بحق خالق الدخان، بحق اخد الروح من الجتة، بحق من رفعها، بحق خالق شياطين الجن والإنس، بحق من سوا السما ورفعها، بحق من سوا الأرض ودكها، بحق من رفع الروح لخالقها، بحق من دفن الجتة في أرضه».

ألقت خضوب تعويذتها لتستقر بعقل ومسامع شمعون، متلقى كلماتها خنجرٌ يمر بين عينيه ليهشم مؤخرة رأسه مرورًا بجبهته.

اهتز جسده مع كل حرف نطقته خضوب، وشعر بسريانه في مجرى أوردته، جالسٌ على الأرض ممسكًا برأسه بين كفيه، متحجرةٌ ملامحه، متعلقةٌ عينيه بخضوب الواقفة أمامه محتجزة الضوء القادم من باب غرفته.

استحت دموع شمعون من النزول مستنكرة مشاعره.

«قوم يا شمعون قبل دكتور الوحدة ما يجي، وماتخفش، لازم ننهي اللي بدأناه».

شعر شمعون بأقدام آتية إلى غرفته، رفع نظره تجاه خضوب

ليجد الفراغ أمامه، لتظهر بدورها امرأة في عقدها الرابع، هزيلة الجسمان ترتدي ملابس تناسب مراسم العزاء تلتف بالسواد.

ليلحقها النحيب والبكاء.

«قوم يا شمعون، قوم يا شمعون، شد عودك لسه الطريق طويل، لسه ولادك عاوزينك، كلنا عايشين بحسك، أبوك وأمك راحو يا شمعون، بس ولادك وبدور عايزينك».

انفجر شمعون بالبكاء وكأن دموعه أُطلق صراحها للتو صارخًا بصوتٍ عالٍ داسسًا ما بيده داخل بنطاله.

«أمي، أبويا، لا، لا، أمي، ضهري انكسر بعدك يا امه، ماليش حضن بعدك يا أبا، آه يا ابا».

ينهض من مجلسه مسرعًا ليخرج من غرفته، ويتجه لغرفة والديه ويغلق الغرفة من بعده.

تخرج بدور من خلفه لتجد باب غرفة الحاج علي والحاجة هدية مغلق، فيستقر بها الحال في صالة المنزل تجالس أولادها تاركةً شمعون لربما تلك الدقائق الأخيرة مع والديه قد تمنح قلبه السكينة قبل مراسم الدفن والكشف الطبي.

جلست بدور ومن حولها أولادها دهار، وذات المحاسن، وزيتون، وتميمة، وسنجاب، يشملهم الحزن يجلسون ملتفين حول طاولة طعام في صالة المنزل المتواضعة.

سكون ودموع صاخبة تحرقهم من الأسى والصدمة، فقد ماتت الروح الطيبة بالمنزل الآن.

«ماما أنا مش مرتاح، مش مصدق أن جدي وجدتي ربنا يختارهم في التو واللحظة».

«تقصد ايه يا سنجاب يا ابني؟»

«أقصد اللي جه في بالك دلوقت».

«اخرس وماسمعش نفسك».

«لا يا أمي، أنت كمان مش مصدقة وشاكة زي أخويا سنجاب بالظبط».

«اخرسي يا ذات مش نقصاكي أنت كمان، اخرسوا، دلوقتي دكتور الوحدة يخرج من جوا وكل حاجة هتبان، وبعدين القدر قدر ربنا ومش بإدينا غير الرضا، وماتنسوش الحاجة كانت روحها في الحاج، ودايمًا تقول له خرجتي معاك يا حاج إن شاء الله في ليلة واحدة، وأهي طلبتها ونالتها».

يخيم السكون على الجميع ليفتح باب غرفة الحاج علي ليظهر الدكتور ليمد يداه رابتًا على كتف شمعون.

«شد حيلك البقاء والدوام لله».

نزلت كلمات طبيب الوحدة على آذان الجميع فشملهم الذهول جميعًا، فلم تمر جملة الطبيب الأخيرة على آذانهم مرور الكرام، ليلتفتوا جميعًا ليتحقق كل فرد من أفراد العائلة أن البقية لديهم نفس الشكوك.

ليخرج شمعون ليضع نهاية لذهولهم:

«جهزي طلبات العزا لبليل يا بدور».

«عزا، جدتي وجدي طول عمرهم موصيين مايتعملهمش عزا».

«ايه يا سنجاب، خايف نتعب مراتك صابرة!»

«مش فكرة تعب يا شمعون، ولادك ومراتتهم مابيتأخروش، احنا بنتكلم في وصية يا شمعون، الحاج طول عمره بيقول عزاه على المقابر، ووصى الحاجة هدية لو أجله جه قبل أجلها مايتعملوش عزا».

«أنا أدرى بأبويا وأمي ووصيتهم لي كانت ايه!»

«احنا عمرنا يا بابا ماسمعنا غير وصيتهم إنهم مش عاوزين عزا».

«أنت كمان يا تميمة هتقولي لأبوكي يعمل ايه وما يعملش ايه؟»

شعرت بدور بحدة الموقف والحوار بين أولادها وأبيهم لتضع نهاية للحوار.

«سنجاب انزل خلي صابرة تنضف المجلس تحت، وأنت يا دهار ساكت ليه؟ هند بنت الأكابر طبعًا عند الأكابر وجاية العزا بالليل على الجاهز».

لم يستجب دهار كعادته، ولم يستفزه الحديث الدائر من حوله ليجذب أطرافه بل أومأ برأسه فقط إيماءة رفض.

طرقات الباب تخرجهم جميعًا من الحديث، اتجه زيتون الصغير وهو أصغر إخوته وقد أتم عامه العاشر للتو لفتح باب المنزل.

«الحاج شمعون موجود؟»

«ازيك يا فتيل؟ ثانية واحدة هنده لك بابا».

«بابا، فتيل على الباب عايزك».

انقلبت ملامح بدور لتهمس بأذن شمعون:

«الواد ده ايه اللي جابه هنا يا شمعون؟»

نظر لها شمعون نظرة تحدٍ وعناد ولم يرد على سؤالها واتجه للباب.

«ازيك يا فتيل؟»

«سيدي رسال باعت لك البن ده، وبيقول لك إنه جه من السفر وجاي العزا».

«حاضر يا فتيل، قل له وصل».

أغلق الباب من خلفه ليعود ليرمق بدور في تحدٍ لها.

«عاوز ايه زفت البرك ده؟ مايجيش منهم غير الفقر».

تجاوز شمعون كلام بدور:

«احنا يومنا طويل، ماتحرمنيش من الحزن على أبويا وأمي».

قال جملته محاولًا إثبات مسحه الحزن بعينيه أمام أولاده جميعًا، والتي أخفق في إتقان إظهارها أمامهم، وبالأخص دهار فقد ظل طيلة مجلسهم يمعن النظر في عيني شمعون.

******

مر يوم العزاء الثالث في منزل الحاج صالح بسلام، السيدات بالدور العلوي تتم مراسم العزاء تحت إشراف بدور وذات المحاسن وتميمة وصابرة وهند، والمعزون الرجال بالطابق السفلي حيث شمعون وأولاده دهار وزيتون وسنجاب وحميدة زوج ذات المحاسن.

أتمت هدية وصالح يومهما الثالث في مرقديهما الأخيرين، ومر عزائهما بهدوء تام دون أدنى أحاديث جانبية، وكأن السكينة تحتل عقل كل من احتسى من البن المرسل من رسال، ليجتمع أطراف العائلة ليلًا بعد نهاية عزاء اليوم الثالث في صالة المنزل ملتفين حول طاولة العشاء، ليرأس المجلس شمعون، في مقابله تجلس بدور، يلتف من حولهم دهار وصابرة وهند وسنجاب وتميمة وذات المحاسن وزيتون وحِمِيدة ليتناولو جميعًا وجبة العشاء في صمت.

«تليفونك بيرن يا شمعون، شمعون، شمعون».

سحبت بدور شمعون من أعماق خياله السارح في وعائه الفارغ أمامه.

«ايه يا بدور! آه ده تليفوني».

«خليك هقوم اجبهولك».

«لا يا بدور، أنا اكلت أنا قايم أجيبه».

أخذ شمعون هاتفه المحمول متجهًا إلى غرفته ليستقر في أبعد

نقطة في الغرفة جوار النافذة ليكون بمأمن من مسامع عائلته.

«الو، أيوة يا خضوب».

لحظة صمت من خضوب ليأتيه ردها من الطرف الآخر.

«ما لك يا شمعون؟ أنا حاسة بيك مهموم، انسى اللي فات ونبدأ من جديد، جديد ايه، لا انسى اللي فات عشان نكمل اللي بدأناه».

«مش قادر يا خضوب صورة أبويا وأمي مابتفارقنيش».

ضحكة شيطانية من خضوب صمت لها شمعون.

«أحب أطمنك يا شمعون، ولا هتنسى عمرك كله، اللي هينسيك الكنز، الكنز بس اللي يقدر ينسيك كل اللي حصل، واللي هيحصل اليوم اللي تمسك فيه الصندوق بإيدك، هتنسى أمك، هتنسى أبوك، هتنسى ولادك اللي من صلبك، هتنسى بدور، آه صحيح خلي بالك من بدور يا شمعون، بدور معاها نص التعويذة بدور أم الولاد».

«مش قادر يا خضوب مش قادر».

يسرح شمعون في خياله لينقطع اتصاله بالعلم الخارجي لتمر به سحابة اليوم المشؤوم أمام عينيه.

طرقات على باب المنزل يتجه شمعون على إثرها ليفتح الباب.

«ازيك يا فتيل؟»

«الشيخة خضوب بتقول لك خد الصندوق ده، وماتفتحوش إلا

لما تكلمك».

أخذ شمعون الصندوق الخشبي متجهًا إلى غرفته حيث هاتفه المحمول واضعًا إياه جانبه، ومن لحظة إلى أخرى يسترق النظر إلى هاتفه، ومن ثم إلى الصندوق الخشبي العتيق.

يرن الهاتف.

«الو، ايه الصندوق ده يا خضوب؟»

«الصندوق ده فيه حل كل مشاكلك، هههههه، اعتبره صندوق الدنيا، الصندوق ده بوابتك للحياة، افتحه، لا، استنى، قبل ما تفتح الصندوق فيه من تحت غطا صغير لفه وأنا معاك».

وضع الهاتف جانبًا ممسكًا الصندوق بيدٍ مرتجفة ورفعه لأعلى ليجد غطاء سحري أسفله، بدأ في محاولة فتح الغطاء فانفتح بسهولة.

وجد ورقه بيضاء أسفله، أخذ الهاتف مرة أخرى على أذنه.

««الو يا خضوب».

«عارفة يا شمعون، الورقة أنت شايفها فاضية وبيضا، بس هيه مش فاضية، افتح طرف الصندوق ودخل طرف الورقه في الصندوق، أوعى تفتحه عشان ماتتأذيش، سامعني كويس؟»

««تمام، تمام، نفذت كلامك بالحرف».

لحظة سكون من خضوب تعقبها تنهيدة.

«دلوقت يا شمعون بص في ساعتك، الساعة كام؟»

«الساعة ١٠».

«طيب، مفعول الورقة ساري على الصندوق وسحره لمدة ساعة، لو ماسمعتش كلامي مش هيبقى لي سيطرة على الصندوق ولا اللي فيه».

«ايه اللي فيه؟ وليه بتعملي كده؟ أنا تعبان، تعبت خلاص».

«مش وقت تعب خالص يا شمعون، أنت اللي بديت الطريق يبقى تكمله، يا تكتب نهايتك ونهاية أهل بيتك بإيدك، هسيبك تفكر بس مش كتير».

«الو، الو، خضوب، الو».

أُغلق الخط من اتجاه خضوب، وظل شمعون متسمر وهاتفه بيده، ينظر للصندوق الخشبي القابع أمامه مرتعدة أوصالة، ليفتح عينيه على صوت خضوب تفيقه من غفوته.

«أيوة يا خضوب».

«مش وقت ذكريات يا شمعون، ركز معايا، احنا عدينا نص الطريق، لازم نكمل النص التاني، ولادك كل واحد منهم لازم يبعد ويسيب البيت، وكل ده في بحر أربعين يوم، احسب باليوم وبالدقيقة، يوم الأربعين بتاع هدية وصالح البيت لازم مايبقاش فيه غيرك أنت وبدور وزيتون، فاهم وسامع كلامي، ماتعاندش أقدارهم اللي يجي له سفر سيبه، اللي النار تولع فيه ويخرج بره البيت يطفيها سيبه».

«لا ولادي، لا يا خضوب».

«خضوب العلاوي مايتقلهاش لا، وماتخفش محدش هيطوله الأذى، أنت بس اللي تقدر تإذيهم لو منعتهم يبعدوا عن البيت».

«أنا حاسس حياتي بقت جحيم من ساعة ما مشيت في طريقك ده».

تأتيه ضحكة شيطانية من الهاتف يتبعها صوت رياح شديد يعصف بغرفة شمعون، شمعون فقط دون باقي البلدة، عاصفة انكسرت على إثرها نافذته الزجاجية خضوعًا لها.

وفي لحظة اقتحم كل من بمنزل شمعون الغرفة ليطمئنوا عليه وتجول برؤوسهم جميع علامات الاستفهام لما سمعت آذانهم من صوت عاصفة، وهم في شهر مايو أشد الشهور حرارة، لم يستطع أولاد شمعون الإفصاح عن تساؤلاتهم بل اكتفوا بالنظر في أعين بعضهم البعض لربما وجدوا إجابة لتساؤلاتهم.

«سبوني ياولاد، أنا كويس، شيلي الإزاز ده يا بدور، سيبوني ارتاح، أنا تعبان، تعبان».

يخرج الجميع تاركين شمعون جوار النافذة يتأمل خارجها، وجواره بدور تجمع ذرات الزجاج في صمت إلى أن أتمت مهمتها وجلست جواره بهدوء.

«ما لك يا شمعون؟ أنا حاسة بيك، عارفة إن موت الحاج والحاجة كسرك، وحاسة بيك، وعارفة إنك حاسس بالذنب، بس ربك كبير، ربك قادر يداوي اللي بيك، بس أنت الجأ له، عارف يا شمعون،

أنت عمرك ما جربت تلجأ لربنا، ربنا وحده اللي قادر يداوي اللي بيك يا شمعون، جرب، جرب يا حبيبي تتوضى وتصلي ركعتين لله، والله لتفرج وربنا يفرجها عليك وعلى كل البيت».

اعتاد الحاج علي الصالح الجلوس في أرضه بمقابلة النيل ليلًا إلى مطلع الفجر، بعد يومه الطويل من حرث وزرع الأرض، كان يومه يبدأ للتو، ليلًا بعد أن يسلم كل من في البلد روحه لربه ويغطس الجميع بنوم عميق عدا الحاج صالح، يجلس أمام النيل ليداعب تلألؤ القمر مع سطح الماء إلى أن يغرق بنوم عميق لمدة ساعات قليلة، ثم يعود ليطمئن على زوجته هدية ومولودهما شمعون، كان يقضي ساعاته على ضفاف النيل في غرفة من الخوص، كان مجلسه يهرب منه أشجع الرجال في البلد زعمًا منهم أن هذه المنطقة من أكثر المناطق ظلمة على ضفاف النيل، فهو يقضي ليلته مستمتعًا بحرق الأخشاب أمامه للتدفئة مستمتعًا بالنظر للنيل أمامه إلى أن غالبه النوم وثقلت جفونه إلى أن استسلم أخيرًا ليغوص بنوم عميق حتى شعر برعشة شديدة تسري بجسده أفاقته من نومه ليفيق ويسترق النظر من حوله، فشعر بحركة غريبة على مرمى نظره، فلم تسعفه عيناه فمر به من العمر سنوات استباحت قوته ونظره.

دقق النظر ليجد امرأة تقف على أطراف النيل متسمرة دون حراك، ترتدي جلباب ناري اللون مسدل شعرها أحمر طويل ليصل لمنتصفها.

يقف علي صالح على قدميه، يتحرك مسرعًا نحوها حتى اقترب منها بمسافة تسمح لنظره الضعيف التأكد والتحقق منها، ثم أبطأ

حركته ليفصل بينهما بضعة أمتار، أمتار قليلة تشبع فضوله، وبذات الوقت تسمح له بالركض في حال أخذ قرار الفرار.

صوتها داعب أذنيه، صوت غير مسموع الحروف بل تمتمة لكن شيء بصدره يتلذذ بهذه التمتمة ليقترب أكثر فأكثر.

لم يفصل بينهما سوى خطوة واحدة، فبعد أن اقترب أكثر صمتت تمامًا ولم يتبق بأذنيه سوى صوت الماء.

وفجأة التفت له ليجد وجهها شاحب مرهق، وعيناها تنظران أرضا برأس منكسة ووجه ملائكي.

«أنت مين يا بنتي؟ وبتعمل لي ايه في الساعة دي؟»

فجأة رفعت عينيها لتنظر له في صميم عينيه بعينين حمراوين كلون الدم، ارتعد ورجع إلى الخلف بضع خطوات إلى أن سقطت أرضًا، فسرعان ما عاد في قراره ليلتقطها قبل تمام سقوطها أرضًا وحملها وأخذها حيث مجلسه في دروته الخوص، وضعها على مرقده المفروش بالكليم وأعدلها، وسرعان ما أحضر لمبته الجاز ليقربها من وجهها ليتأكد مما رأى كانت مغمضة العينين متوهجة، وضع يديه على جبينها، شعر بحرارتها تنتقل لجسده، فأخذ القرار سريعًا بوجوب مداواتها أولًا قبل أن يعرف حكايتها.

خلع جلبابه وذهب إلى ضفاف النيل ليبلله ويعود لها سريعًا فربما استطاع أن يلطف حرارة توهجها بجلبابه المبلل.

ذهب وعاد ليلقى صدمته، إن مجلسه فارغ، لم يجدها، وقف متسمرًا أمام فرشته الفارغة متحسسًا مخدعه ليشعر بحرارتها،

للتو غادرت المكان إذن، لم يكن بخيال بل واقع، إذن لم تكن حلم، ترك مكانه ليحوم من حوله باحثًا عنها في كل مكان ليعود مجددًا إلى النيل حيث كان لقائهما لم يجدها أيضًا، فلم يجد خيارًا آخر سوى أن يلملم ما تبقى له من أعصاب ليعود لهدية ويقص عليها ما تم وحدث؛ ربما وجد لديها تفسير.

«ما لك يا حاج، مش على بعضك ليه يا أخويا؟ أنت زعلان على اللي حصل لبيت عتمان؟»

«ما له بيت عتمان؟»

«يوه يا حاج، وأنا اللي فاكراك دريت اللي حصل، بيقولوا اللهم احفظنا واجعل كلامنا خفيف عليهم، البيت ادك عليهم عشية بليل، الدنيا مقلوبة يا أخويا، ما أنت عارف موضوع الكنز والآثار ومدرك ايه ومعرف ايه، وولاد عتمان الله يرحمه بعد ما مات بأربعين يوم جابوا ناس مغاربة باين يطلعو الكنز، والبيت ادك عليهم كلهم ما عدا بت شابة مش لاقينها يا أخويا، والبلد مقلوبة عليها والنسوان ماوارهمش حكاية غير بيت عتمان».

«شابة! مين الشابة دي يا هدية؟ وتبقى بنت مين؟»

«ما أعرفش، بيقولوا غزية من مصر، وهي اللي بتجيب الناس اللي بيطلعوا الكنز، اللهم احفظنا».

«شكلها ايه يا هدية البت دي؟»

«يوه يا راجل، سايب اللي راح واللي جه وماسك في الغزية، اختشي يا راجل».

لحظة صمت وسكون.

وبدأ للتو إحساس خوف وقلق يدخل صدر علي صالح، ومن بعده أخذ القرار بالصمت وعدم الإفصاح عما حدث في ليلته الماضية محاولًا إرجاع الأمر لهلاوس الليل والإرهاق.

******

امضى شمعون ليلته بجوار بدور، تجمعهما وسادة واحدة وتفصل بينهما بحور من التفكير.

فمن جانبها كانت تحلم وتفكر في غدٍ أفضل لأولادها وذريتهم، حالمة أن تنعم بحياة أهدأ، واستقرار دومًا بحثت أن تستطعمه يومًا مع شمعون.

وشمعون غارق في همومه، لا تفارقه كوابيسه، يفكر في الخطوة القادمه تجاه الشيطان، فعقده المبرم مع الشيطان عقد من الواضح أنه غير قابل الرجوع.

«شمعون، يا شمعون، أنت نمت!»

«بحاول يا بدور».

كلٌ من الطرفين يسكن طرف مخدعه، فتقترب بدور ملتفتة لشمعون تحتضنه من الخلف بهدوء.

«شمعون، عاوزة أقول لك على حاجة، دهار ابنك...»

«ما له دهار؟»

«ما لك اتخضيت كده؟ الواد زي الفل وجت له السفرية اللي بيحلم بيها، والنبي الواد ده غلبان يستاهل كل الخير، كان بيحلم يسافر يأمن مستقبله ومستقبل عياله الجايين إن شاء الله، والحمد لله ربنا كرمه في مكتب سفريات وجاله عقد حلو يا أخويا في الخليج، هيعملوا قرشين حلوين».

اعتدل شمعون في رقدته لينام على ظهره في محاولة منه لطرد أفكاره الشريرة.

«وبنت الأكابر هتسافر معاه طبعًا».

«طبعًا يا أخويا، رجلها على رجله، دي ما صدقت ربنا يوسع عليه عشان يقدر يسد عليها، بس ماكنتش من توبه والله».

«الكلام ده فات أوانه، مش هو اللي اختار، يبقى يشيل شيلته يا هدية».

«على قولك يا أخويا، المهم ماتكسرش بخاطره أنت بس والنبي، وسيبه يشق طريقه، والبركة في اخواته».

«اللي فيه الخير يكون يا بدور، الكلام ده سابق أوانه».

«ما أنا ماقولتلكش يا حاج مش سابق أوانه ولا حاجة، ده المفروض يجهز حاله في بحر أسبوع».

ألقت بدور جملتها الأخيرة سريعًا دون اهتمام، داعيةً ربها ألا تستوقف شمعون كلمتها.

اعتدل من نومته جالسًا بجوارها، مستفسرًا عما سمعت أذنه للتو:

«نعم يا اختي! بحر أسبوع».

«وحياه حبيبك النبي ما تعمل زي كل مرة وتقف له فيها يا حاج».

«يا هدية العقد لو فرطت منه حبة هيفرط كله منك، ولو على المال وتأمين مستقبله ومستقبل عياله يبقى مال أبوه أولى بيه، يتغرب ويبعد عشان يجيب ملاليم وأنا أقدر أدي له اللي هو عاوزه، بس دي كلها لعبة من بنت الكلب هند، من يوم ما دخلت علينا عاوزه تخلعه، وابن اسم النبي حارسه دلدول ومربوط من ودانه».

«سيبه يا شمعون يشق طريقه، دهار ابنك مش زي سنجاب، وصوابعك مش زي بعضها، والنبي ده أنا فرحانة بس لفرحة قلبه».

انزلق شمعون ليعود ويتكور على جانبه ناظرًا للفراغ أمامه مستشعرًا للتو بخطوة أخرى تجاه الشيطان، ليعود عقله لليوم المشؤوم وبجواره الصندوق الخشبي، وبيده الهاتف يأتيه اتصال من خضوب.

«كده أنا سبتك تفكر كتير، سبتك تفكر بس مش هسيبك تقرر».

«يعني ايه؟»

«يعني تاخد الصندوق وتدخل على علي صالح وهدية هتلاقيهم في سابع نومة، تفتح الصندوق هتلاقي شنطة جواه، أوعى تفتحها، حطها في براد الميه اللي بيشربوا منه واسقيهم منه بإيدك».

«فيها ايه الشنطة دي يا خضوب؟»

«فيها عقرب جان أحمر سمه هيسري في دمهم عشان أمر اللّٰه ينفذ فيهم، وماتخافش مش هيبقى ليه أثر، لا في براد الميه ولا حد شايفه غيرك أصلًا».

انتفض شمعون مستنكرًا للأمر القادم له ونزلت دموعه مستنكرة لما تريد خضوب فعله.

«ما اقدرش يا خضوب، ما اقدرش أقتل أبويا وأمي بإيدي ما اقدرش!»

«لا يا شمعون هتقدر، فات أوان الرفض يا شمعون».

ارتعشت خلجات شمعون وتصببت جبهته عرقًا محاولًا طرد الفكرة من عقله أو حتى محاولًا مضغها، فهو الآن بين كفي رحى، بين تنفيذ ما أتى له من أمر من خضوب، ومن استنكار فعلته بأمه وأبيه، لم يستغرق به الأمر كثيرًا.

أُغلق الخط من قبل خضوب، وتحرك شمعون خارج غرفته مسلوب الإرادة، وكأنه محمول من فوق الأرض، حاملًا الصندوق الخشبي متجهًا إلى غرفة علي وهدية ليتم المهمة التي كُلف بها مسلوب الإرادة ليفيق بعد أن أتمها على أكمل وجه.

غاص شمعون في نومٍ عميق ليفيق من غفوته من كوابيس عدة، وكان النصيب الأكبر منها يوم مقتل صالح وهدية.

يفيق من غفوته على صوت أنفاس تأتي من خلفه أقرب إلى أنفاس كلب، ليستشعر بأنفاسه أنفاس مختلطة برائحة جيفة

عفنة، يُسْكِن حركته ويُوقِف تنفسه ليتحقق من الصوت الآتي من خلفه، يتصبب عرقًا من جبينه، يلتف بهدوء لبدور ليتحقق من الصوت ليلقى صدمته عندما وقعت عيناه على كلب أسود ضخم الرأس لا يفصل بينهما سوى فراغ السرير.

يقفز شمعون مسرعًا متجهًا ليضيء نور الغرفة.

«بسم الله، بسم الله، ما لك يا شمعون؟ ما لك يا حبيبي؟»

«بدور! آه، أنا تعبان، أنا تعبان، محتاج ارتاح».

«ارتاح يا حبيبي، باينك كنت بتحلم، اشرب بوء مايه، اشرب».

تقع عيناه على براد الماء الخاص بغرفتهما فيطيح الكوب من يدي بدور لتسقط منها أرضًا، وذهب إلى مخدعه لينام متجنبًا استرجاع ما حدث أو ما رأى بأم عينه.

باتت بدور ليلتها دون أن يخفض لها جفن، فظلت قلقة متوترة مسترجعة لحظات فزع شمعون بجانبها، لتتذكر وجهه الشاحب المتصبب عرقًا وعينه الحمراء كالجمر، وباتت ليلتها في قلق وحيرة عما رأته من فزع على شمعون.

فشمعون في الآونة الأخيرة تبدل حاله أصبح أكثر هدوءًا لدرجة الانطوائية، وأيام أخرى أكثر نشاطًا، وتارة أخرى أكثر انفعالًا لدرجة تسببت في هالات من التساؤلات لتحيط به.

في الفترة الأخيرة وقبل موت علي الصالح وهدية اعتاد شمعون الجلوس بمفرده ليلًا في عتمة الليل بأركان المنزل، ولم يستجب للتداخل في أمور الحياة مع من حوله.

******

ذاع في أطراف البلد ما حدث في منزل عتمان وما تم من أولاده الأربع مما أنهى حياتهم تحت أنقاض منزلهم، هم والسحرة القادمين من المغرب كنهاية لسطور الجشع والطمع.

فانشق رأي البلد، فمنهم من أجمع أن سبب انهيار المنزل هو الحفر لعدة أمتار أسفله إلى أن دُكت جوانبه عليهم، وأجمع البعض الآخر أن دخول السحرة في منزل عتمان كان هو السبب الأكبر لقلب السحر على أبنائه، بينما أجمع آخرون أن ما حدث هو نهاية طبيعية؛ لأن السحر المنعقد داخل المنزل كان من السحر الأسود، والذي يلزم لإتمامه دم وخيانة، فربما حتم الأمر على الأخوة أن يقتلوا بعضهم البعض ليتبقى من يحوز الكنز، وبالأخص أن جثثهم احتوت على بعض أنواع العنف، لا مجرد جثث نفقت تحت الأنقاض، فمنهم من فُقئت عيناه بسلاح أبيض، ومنهم من قطع إصبعه أيضًا بسلاح أبيض، ومنهم من أُزيلت أعضاؤه التناسلية وليس لها أثر، وتم كل ذلك تحت الأنقاض.

لكن اللغز الأكبر والذي دام لأعوام داخل تلك البلدة الفقيرة في أطراف الصعيد هو غياب أحد الجثامين، والتي شوهد قبل انهيار المنزل بصحبة جمع من السحرة وأولاد عتمان، فكان بالمنزل هم أولاد عتمان الأربع واثنان من السحرة وشابة، وجدت جميع الجثامين ما عدا تلك الشابة، والتي قيل في البلد أنها لم يكن لها أساس من الوجود؛ لأنها روح تستخدم عن طريق السحرة، وقال البعض الآخر إنهم رأوها تجري خارج المنزل قبل دكه بلحظات، وباختلاف الآراء دام الأمر وبات سرًا لا يعلم حقيقته إلا الله.

باتت العلاقة متوترة بين هدية والحاج علي صالح، فأسلمت هدية أذنها لنميم النساء ليأتوها بأخبار عن الحاج علي صالح في مجلسها.

«كيف يا هدية ماعرفاش الحديث الداير على جوزك في البلد كلاتها، دي البلد كلاتها مورهاش غير الحاج علي صالح والجنية اللي معاشرها من تحت الأرض، اللهم احفظنا يا رب، وإن الجنية جايبة له الخير كله ومسخرة له خير الأرض كلها يا هدية».

«لا يا بت ده بيقولوا ديك النهار كان أرضه عطشان ومفيهاش نقطة مايه، بيقولوا النطرة نزلت بس على أرضه».

تضحك النساء داخل مجلس هدية دون ردة فعل لها، لتفيق مما سمعت وكأن ردة فعلها وصلت للتو.

«اخرسي يا مرة أنت وهي وامشوا من هنا الحاج علي الصالح يعرف ربنا وحاجج بيته، والخير ده كله من تعبه وشقاه».

خرج النساء وانفضنن من حول هدية وسط غمز ولمز منهن، ليتركنها تسترجع الشهور الماضية وتلمس بيديها مدى توتر العلاقة بينها وبين علي الصالح، تتذكر يومًا أفاقت على صوته ليلًا متمتمًا بكلمات وآهات غير مفهومة، متوهجًا متصببًا عرقًا بأنفاسٍ تشبه أنفاسه حين يضاجعها ليلًا، فتلك الأنفاس هي الأكثر حبًا لها.

لتسأل نفسها هل بعد عنها الحاج علي الصالح ولم يعد يستشعر نشوة جنسية منها بسبب الجان السفلي، إذن في كل مرة سمعته

يتأوه فيها كان بالفعل يمتطي إحدى نساء الجان.

شعرت بالخجل من تفكيرها لشعورها أنها اقتصرت كل ما بينها وبين علي الصالح فيما يدور بين فخذيها، تفكير في الخير الآتي من الأرض في الفترة الأخيرة فبالفعل لم يكن طرح أرض علي الصالح يفيض على استخدامهم ويعود عليهم بالربح الشديد، لكن الوضع اختلف منذ بضعة شهور فأصبح خير الأرض يفيض ويطرح ليدر المال على منزلهم المتواضع.

جميع ما سبق من أفكار سدد كلام النسوة المنعقد للتو بمجلسها، ليستقر بفراغات عقلها، فالآن يستوجب الأمر منها المواجهة مواجهة علي الصالح، فهي لن ترتضي بنصف حياة ولن ترتضي بنعيم مقابل مشاركة نساء الجان في ذكرها العزيز.

تنتظر هدية علي صالح بعد أن أنامت طفلها شمعون ورتبت منزلهم المتواضع الهادئ، وأبدلت جلباب المنزل بقميص نوم من الحرير الأسود لتظهر مفاتنها وبياضها من أسفله، كانت هدية من أكثر نساء البلدة بياضًا، تمتلك جسد ملتف موزون الأركان يعلوه شعر أسود مجعد لامع من إثر استخدام الجاز لترطيبه.

«السلام عليكم، ازيك يا هدية؟ عاملة ايه؟ والواد شمعون عامل ايه؟»

«كلنا بخير يا علي مش ناقصنا غيرك».

«مش ناقصكوا غيري! وأنا رحت فين يا هدية؟!»

«أنت مش معانا يا علي، أنا تعبت يا علي، محتاجاك جمبي،

محتاجاك زي زمان يا علي، أقل لقمة تكفينا وأخف هدمة تدفينا، دلوقت مش حاسة بركة، لا في لقمة ولا في هدمة يا علي، حتى مبقاليش نفس اطبخ يا علي، عارفة هتيجي أخر الليل يا الصبح بدري تتسبح وتنام».

«عارفة بقى يا هدية، أنا بقى الليلة عامل حسابي اتعشى من إيدك الأول».

اسكت على الصالح هدية ليمنح عقله التفكير ليصل للإجابة النموذجية المُرضية لها.

«عيني يا علي، حالًا هجهز لك لقمة يا أخويا تاكلها، واعمل لك كوباية شاي، ونقعد نحكي زي زمان».

«هنحكي من دلوقت يا ولية، جعان، أكل إيدك واحشني».

استطاع علي بذكائه توقع ما نسجه خيال هدية، ولكن ذكائه خانه تلك المرة.

يجلس علي صالح إلى الطبلية مترجي معدته لتقبل الطعام، فربما استطاع دفس أي من الطعام بها إحياءً لماء وجهه أمام هدية، بعدما أقنعها لهاثه جوعًا.

«ياه تسلم إيدك يا هدية، أنا كأني ماكالتش من سنة فاتت».

ضحكت هدية ضحكة مصطنعة ونهضت من أمامه لتحمل صينية الطعام كما وضعتها أمامه، فقط عبث بسيط ظهر على محتوى أطباقها.

«يا راجل ما الأكل زي ما هو أهو، والنبي ما فرق ده بحطت إيدي يا أخويا، كأنك جاي متعشي وماردتش تكسر بخاطري».

«لا والله، تسلم إيدك، علقي على براد الشاي، عشان تبقي كملتي واجبك الليلة معايا».

«ده أنت واجبك خفيف قوي يا حاج، جاي في أكل وشرب، عاوزين نخدمك في حاجة كبيرة يا أخويا».

«اتقلي على رزقك يا هدية».

سرعان ما التقط علي الصالح ما يجول برأس هدية وكشف ما تنتويه من افتراسه.

ومن جانبها فكانت الأذكى فما تنتويه أهم وأبعد فقد أخذت القرار أن تواجه بما سمعت من نساء البلدة مما دار من حديث داخل مجلسها.

«ألف هنا يا حاج، اديك أخدت واجبك وكلت وشربت، بالله عليك يا حاج وحياة ابنك شمعون اللي بنسترجاه من الدنيا لتقول لي الصدق يا أخويا وتريح بالي، أبوس يدك».

«ايه ما لك يا ولية؟ غمقتيها علينا ليه؟ في ايه ما لك؟»

«يا أخويا في حديت داير في البلد كلها».

«ها بيقول ايه الحديت ده يا هدية».

«بيقول إنك مخاوي يا حاج اللهم احفظنا ومرافق من تحت الأرض».

يضحك علي بصوتٍ عالٍ ويبدأ في حركاته البهلوانية ليقفز من حولها، ويجذبها من ذراعها ليداعب صدرها بأنفاسه.

«طب خلي بالك بقى أحسن أطلع الجن عليكي».

مداعبًا لهدية محاولًا تغير مسار الحديث، لتصدمه بجدية الحوار فارة من بين ذراعيه.

«يوه بس بقى أنا بتكلم جد، ولعلمك أنا ماليش عيش معاك تحت سقف واحد يوم ما اتأكد إنك مخاوي، ده كفر يا علي، كفر، أنا كل اللي عاوزاه أربي ابني بالحلال».

«وماحسـتيش بـالكفر ده لما كنا ناكل طقة ونجـوع طقـة، ماحستيش بالكفر ده لما ماكنش معايا ادفع للفلاحين عشان تزرع وتبدر معايا، ولما عرفت اجيبهم، ماحستيش بالكفر لما ماكنش معايا أجيب رجالة تحصد وتقلع لما الزرع مات في جدره، كل ده ماحسسكيش بالكفر، ماحستيش بالكفر وبيتك مافيهوش لقمة، ماحستيش بالكفر وأنت مابيعشلكيش عيل، كل ده ماحسسكيش بالكفر، وجاية تحاسبيني عشان كلام شوية نسوان».

تصمت هدية وكأن كلمات علي الصالح أصمت أذنها، شعرت بالأرض تدور من حولها، انطبقت جدران منزلها على صدرها لتكتم أنفاسها، فسقطت أرضًا دون أن تشعر بما حولها.

******

التف آل شمعون جميعًا حول طاولة الإفطار يرأسهم شمعون وجواره بدور ليتناول الجميع، منزل شمعون يتكون من ثلاثة

طوابق، الطابق الأرضي لشمعون وبدور وتميمة وابنهم الصغير زيتون، والطابق الأول يسكنه دهار وزوجته هند السقا بنت الأكابر كما ينعتها جميع من بالمنزل، والطابق الثاني لسنجاب وزوجته صابرة، وتسكن ذات المحاسن الطابق الأخير والذي يأخذ طابع السطح التقليدي، فمساحته نصف مساحة المنزل هي وزوجها حِمِيدة الشواف.

يتميز منزلهم ببساطة الطابع الريفي،

جدران عالية قاتمة اللون تسكن شروخها كثير من مستعمارات العناكب، قناديل ونجف متدلي

يميز المنزل، المداخل الرخامية كإعلان لا بأس به عن تجارتهم.

لحظة انهماك مرت على الجميع وقت التهامهم وجبة الإفطار، صمت مخيم عليهم، ليكسر السكون صوت دهار ليبدأ الحديث بعد وغزات عدة من هند له، إلى أن أوقفت اللقمة بحلقه فتبعها بكحة قوية لتقوم مسرعة له بكوب ماء لتلحقها بصفعة على ظهره.

«اتكلم يا دهار يا ابني أنا سمعك، اتكلم بدل بنت الأكابر ما توقف اللقمة في زورك».

ابتسم الجميع من حول المائدة ليتحدث دهار بعد أن ابتلع ريقه:

«أيوا يا بابا، أنا كنت مستني تخلص فطارك وندخل نتكلم».

«أنت مستنيني اخلص فطاري، وفي ناس مستنياك تتكلم وتسمع ردي».

أنهى شمعون جملته بنظرة ثاقبة لهند ليصلها صوت عقله:

«أنا فاهم النفس اللي بتتنفسيه يا بنت الأكابر».

نفضت هند يديها من بقايا الطعام ونهضت محاولة الإسراع إلى المطبخ قبل ظهور الخجل على وجنتيها احمرارًا.

«أنا هقوم أولع على الشاي».

ضحكت بدور ماصة شفتيها متمتمة بصوت غير مسموع للجالسين عدا شمعون.

«ولعي على الشاي يكش تولعي يا بعيدة».

«طيب يا بدور، لما هند تعمل الشاي هتهولي أنت على الأوضة، قوم يا دهار يا ابني اغسل ايدك وتعالى ورايا».

دخل شمعون غرفته، غرفة يتوسطها سجادة سوداء ذات إطار أحمر تنتصف أرضية رخامية، يقبع سرير خشبي بأحد الأركان، تتدلى من خلفه ستارة زرقاء اللون مخضبة بنسيج أحمر، وبالركن المقابل دولاب خشبي عتيق تطل من إحدى درفتيه مرآة مكسورة الجوانب.

يقف أمام النافذه ناظرًا للفراغ أمامه، فأغلب غرف المنزل تطل على أراضي زراعية، بعضها ملكًا له، استند بيده على الإفريز أسفل النافذة ليملأ رئتيه من الهواء ما يكفيه لاستمرارية الحياة، فبعد موت والديه لم يستشعر طعم للحياة، إلى أن سمع صوت طرقات على الباب.

«ادخل يا دهار، ادخل».

دهار شمعون علي الصالح،

شاب بمقتبل العمر، لم ينه عقده الثالث، طويل، نحيف جدًا، أبيض لدرجه انكشاف أوردته وشراينه بدقة تحت جلد مرهق أملس، ذو شعر أجعد بني، عينان عسليتان يتوسطهما أنفٌ طويل مدبب، أسفله شارب بني رفيع، يعلو أسنان استسلمت مينتها لتسكنها بقايا الدخان والقهوة.

«تعالى اقعد قدامي بقى كده واحكي لي بالراحة يا ابني، أنت ناوي تعمل ايه وطلع كل اللي جواك».

«أنت عارف يا بابا، أنا من ساعة ما اتخرجت من كلية التجارة وبحلم يجيلي شغلانة بعقد في أي دولة من دول الخليج، بحلم اشتغل بشهادتي يابا أنا كرهت شغلانة الكاشير دي».

«ما أنا ياما قلت لك يا ابني تعالى امسك لي معرض من المعارض، وتبقى في ضهري مع أخوك سنجاب، أنت اللي غاوي مرمطة وشغل عند الناس، ولا بنت الأكابر مش عاجبها شغل أبوك».

«لا يا بابا هند مالهاش دعوة، أنا اللي مش عاجبني ونفسي ابني نفسي بنفسي».

«مش عاجبك شغل أبوك يا حمار، ما هي برضو هينوبها من الحب جانب، المهم يا ابني هند اختيارك ومحدش شال مراره غيرك، ولو إن كلنا شلناه معاك، بس الحلو محدش شايفه غيرك ده الأكيد ومن الأخر بين المرار والحلو أنت حر، نهاية الكلام، ربنا يسعدك يا

دهار، وتبقى عارف إنك فرحة شبابي، وهستناك يا ابني عشان اشيل ولادك».

«في حياتك يا بابا، هتشيلهم وتفرح بيهم يا أغلى أب بالدنيا».

اقترب شمعون من دهار ممسكًا كتفيه بيديه.

«بص يا ابني أنا مش هقف في طريقك المرة دي، بس عاوزك تخلي بالك من نفسك، وتبقى عارف يا ابني إني بابي مفتوح لك أي وقت، ولو ببان الغربة قفلت في وشك ماتعاندش وارجع يا ابني، بابي مفتوح لك ومستنيك».

لينتهي الحال بشمعون محتضنًا ابنه دهار محدثًا نفسه:

«أول العقد انفرط يا خضوب، أول العقد انفرط».

خرج دهار مسرعًا ليزف البشرى لزوجته هند في شقتهما.

«أنا مش عاوز ازعلك يا هند، بس أنا مش هقدر أعصي أبويا».

«مش هتقدر تعصي مين يا روح أمك، لا، لا، ده أنا اعمل لأهلك فضيحة في قلب البيت، دي السفريه اللي بحلم بيها من يوم ما رجلي دبت في المخروب ده، مش كل مرة تسلم الجرة، ومش كل سفرية أبوك يقف لي فيها، يبقى خلاص يا عين أمك ماتعصاش أبوك وروح نام في حضنه أخر الليل».

تعالا صوت هند لتخلع ملامح البراءة داخلها لحظة دخولهما الشقة ليصل صوتها لبدور وشمعون بالطابق السفلي.

وبعد أن أفرغت ذخيرة الغضب بأكملها بوجه دهار، أغلقت باب

غرفتها في وجهه.

ليقف جوار الباب مرتعش متمالك دموعه ليمنعها النزول للحفاظ على ما تبقى من كبرياء دهس تحت قدميها.

«هند، يا هند افتحي، أنا كنت بهزر معاكي، وحياة ربنا كنت بهزر، خلاص يا هند أبويا وافق على السفر وهنسافر».

تفتح هند الباب وتجذبه من ياقة البيجامة لداخل الغرفة دون أن تنطق كلمة أسف أو اعتذار، ليخرج صوت ضحكتها خارج الغرفة بل لخارج شقتهم ليصل أيضًا لمسامع كل من بالبيت.

«ما لك يا بت يا ذات، دبلانة بقالك كام يوم وشايلة الهم».

«ماليش يا أمي، أشيل الهم ليه، بطلت اشيل خلاص».

تقف شابة ممتلئة الجوانب ذات شعر أسود قصير أشعث وكأنه رافض انتمائه للجسد أسفله، غير متناسقة الأبعاد، جميع ألوانها قاتمة، يلجم حرية قدمها تلك الحدوة الحديديه التي وهبها لها العجز بعد أن شُل أحد طرفيها، تقف لتتوه دموعها وسط ماء غسيل الصحون أمامها ليختلط الكحل الأسود بعينيها، فلم تعرف شيء من أدوات النساء سوى الكحل الأسود فللتو أتمت عقدها الثاني من العمر بملامح امرأة دهسها قطار الخمسين.

ذات المحاسن شمعون على الصالح.

«يا بنتي هتتعدل، والله لتتعدل وربك مابيظلمش حد».

ينزلق أحد الأطباق من يدها، فتقف بدور تاركة ما بيديها من

تحضـير لوجبـة الغـداء، لتقـف جـانب ذات المحاسـن تطوقـها بذراعيها وهي تقف تستند بإحدى يديها على الحائط أمامها واليد الأخرى تعبث في الزجاج المكسور منكسة رأسها تنظر للأطباق المُكسرة أمامها منفجرة بكاءً.

«لا أنا اتظلمت، أنا اتظلمت من صغري، لا عيشت عيشة اللي في سني، ولا لعبت زيهم، واتحرمت من كل حاجة، حتى التعليم مخدتش حقي فيه، ودلوقت أكتر حاجة ممكن تحسسني إني عايشة إني ابقى أم، مفيش فايدة وكأن اللي مني رافض يعيش جوايا، أنا تعبت، مرة واتنين وتلاتة، صعبان عليا يا أمي، صعبان عليا أتخيل شكل ولادي من حِمِيدة، صعبان عليا كل اللي مني يموت ومايعش، كل ده وماتظلمتش، لا اتظلمت يا أمي، حتى انتـي وأبويـا ظلمتونـي، أنـا أقـل حـد فـي إخواتـي، وكـأنكوا استخسرتوا أعيش زيهم، وأنا أقل منهم كملتوا عليا ورمتوني أنا وجوزي على السطح».

«احنا ظلمناكي يا ذات! أنا وشمعون ظلمناكي يا بنتي، أنت عاوزة ابوكي يعمل ايه؟ كتر خيره إنه فتح لكوا بيته بعد ما أهل حِمِيدة طردوه طردة الكلب، ماتخلينيش حاطة في بطني وساكتة، مالوش لزوم نفتح ونتكلم، بس احنا ماظلمنكيش».

«ماتزعليش نفسك، اللي حس بالظلم من اللي خلقه، مايحسش بظلم حد تاني خلاص».

«اخرسـي يا بت واستغفري ربك، أعوذ بالله، أنت اللي جواكي شيطان، اللي جواكي شيطان، غوري من قدامي يا بنت شمعون، واطلعي شقتك واقفلي على روحك، مش عاوزه اشوف وشك،

وانا ليا كلام مع حِمِيدة لما اشوفه».

تنسحب ذات من أمام بدور جسدها يسبق قدمها بحكم إعاقتها وتصدر صوت صليل قوي من أثر ارتطام جهازها بأرضية المنزل، تخرج من المطبخ ومنه إلى خارج شقة والديها لتبصق من فمها جمل اعتادت لفظها اعتراضًا وكفورًا بما يحدث لها اعتراضًا على أقدارها.

«كفاية يا رب، كفاية بقى، مفيش غيري، تعبت، تعبت، تعبت، كل بلوة مستنيه اللي بعدها، هتبتليني في ايه تاني، صحة ورجلي مش شايلاني، خلفه ومش مراضيني بيها، عندي ايه تاني مستكتره وهتاخده، تعبت، تعبت».

أكملت ذات المحاسن حديثها والذي يبدو أنه خرج من فم الشيطان إلى أن أغلقت باب شقتها عليها.

تخرج بدور خلفها من المطبخ لتجلس على كنبة في مقابل السلم الخارجي جوار نافذة صغيرة، تجلس وتنظر إلى السماء الظاهرة من أطراف البيوت من حولهم، وتمسح دموعها بالشال الملتف على رأسها مهتزة بالكلية مُحطَمة الجوارح والمشاعر، وكأنها للتو سقطت في بئر ولا زالت في طريقها إلى القاع دون الوصول له، فهي الآن في مرحله ما قبل الاصطدام بالقاع، مشاعر خوف وقلق وتعاطف وقلة حيلة من يد مبتورة.

«يا رب سامحها، يا رب واحميها، يا رب، يا رب أنت اللي عالم باللي جواها، وباللي ابتلتها بيه/ اديها من صبرك يا رب، اديها من قوتك يا رب، قويها اديها صبر على بلاها يا رب، وسامحها واغفر

لها يا رب».

******

«قلبي واجعني يا تميمة على أختك، آه لو بإيدي كنت خدت من صحتي وادتها، بس مش بإيدي، ماتطلعي تبصي عليها، حِمِيدة ماجاش لسه، وهي قاعدة لوحدها، خايفة تعمل حاجة في روحها».

تميمة شمعون على الصالح،

بنت صغيرة قصيرة القامة تمتلك شعرًا يتوجها ملكة في عالمها، شعرها طويل أحمر كثيف يصل إلى منتصفها، ملامحها ملائكية، معتدلة القوام، فالنظرة الأولى قد تخطئ جنسيتها لما تبديه ملامحها من ملامح أجنبية، حباها ربها بعينين فيروزيتين، تعلو خدها الأيسر حسنة كبيرة تعطيها تميز، لم تتم عقدها الثاني بعد.

«يوه يا ماما بقى، أنا مش هطلع أنا فوق».

«يا بت اطلعي نطمن على أختك».

«أنا بخاف يا ماما، بخاف من ذات قوي، وخايفة أطلع لها لوحدي الصراحة، وهي متضايقة، أنا أصلًا كنت برتعش في أوضتي من صوتها، أنا مش عارفة جايبة السواد ده منين!»

«اتلمي وماتقوليش كده على أختك، ولما انتي سمعاها وصاحية ماجتيش ليه تهديها، برضه مهما كان سنكوا من سن بعض».

«لا يا ماما، أنا عمري ماحسيت إننا من سن بعض، دايمًا بحس

ذات مستكترة على كل واحد في البيت ده عيشته».

«طب اتكتمي، اتكتمي يا بنت شمعون».

«لا، لا، لا يا حاجة، أنا بنت بدور مش بنت شمعون».

«يبقى عايزة حاجة، قولي لي بقى عايزة ايه؟»

اعتدلت تميمة في جلستها لتقابل بدور على نفس الكنبة، تجذب جلبابها القصير من تحتها متربعة ممررة يديها لتخصل خصلاتها بأصابعها للخلف.

«حسين الضبع».

«انسي الموضوع ده، الموضوع اتقفل وأبوكي نهاه خلاص».

«اصبري طيب واسمعيني».

«اسمع أيه يا بنت الكلب، أنت اتجنيتي، عاوزه ايه تاني، ابوكي مسكه بيسرق في المعرض».

«بيسرق ايه! أبويا اللي قال لك كده، أصلًا المحلات كلها سرقة في سرقة، هو كان داري يعني مين اللي بيسرق ومين لا».

«محلات شمعون الصالح أكبر محلات رخام وجرانيت في البلد كلها».

«هو أنا قلت كبير وصغير، أنا بقول إن السرقة على عينك يا تاجر، هي جت على الضبع يعني».

«يا بجاحتك يا بجاحتك يا بنت شمعون، طب حطي الجزمة في

بوقك بقى، أبوكي جه مش عايزة دمه يتعكر».

دخل شمعون الصالح المنزل متجهًا للمرآة المتواجدة على يسار المدخل، ليخرج كيس صغير من يده ويأخذ حفنة منه ليضعها على المبخرة القابعة أرضًا أسفل المرآة، كطقس يومي اعتاده شمعون وقت رجوعه المنزل، ثم اتجه إلى بدور وتميمة في مجلسهما.

«ريحتك سابقاك يا شمعون».

«تسلمي لي يا ست الستات، ما لك يا بت يا تميمة؟ شوفتيني بلعتي الكلام ليه؟»

«لا والله أبدًا يا بابا، ازيك عامل ايه؟»

«ماشي يا بنت بدور، قومي سيبيني أنا وأمك لوحدنا، واندهي على الواد زيتون من تحت كان بيلعب وعمل نفسه مش شايفني ابن الكلب».

«حاضر يا بابا، عنيه».

«ما لك يا بدور؟ البت تميمة بتتكلم في ايه معاكي وخرست لما شافتني؟»

«يا أخويا مفيش، أنا هقوم اعمل لك كوباية شاي تعدل دماغك لحد الغدا ما يجهز، غدا يوه يا دي الليلة البيضا، أنا ماعملتش غدا من الخوتة اللي أنا فيها».

«أيوة، هنا بقى مربط الفرس، وشمعون الخيال حاسس بفرسه

مش مظبوط ليه بقى؟»

«كبرت يا حاج على الدلع خلاص».

«أنت كبرت على الدلع، أنت الدلع كله اتخلق لك، المهم ما لها البت يا بدور؟»

شمعون الصالح على إدراك تام بكافة مفاتيح بدور، فحفظ جميع مداخلها.

«حسين الضبع».

قفز من جلسته وكأنه ضرب بماس كهربائي، مما حتم على بدور الوقوف بالتبعية مهدئة له.

«اهدى بس يا أخويا، وحياة الغالين لتهدى وتسمع».

«اهدى ايه، أنا الواد ابن النجسة ده مايكسرش عيني، مرة أجيبه من فوقها في المخزن واطرده، وتحط راسي في الطين واجوزهاوله واشوفوا بيسرق واطرده وارجعهاله تاني، ليه كفاية مطاطية، هي فين بنت الكلب، يا تميمة!»

قبل أن يتم شمعون حروف اسمها حضرت أمامه في التو واللحظة فقد كانت تتلصص من خلف باب غرفتها لعلها سمعت ما يريح قلبها.

«أيوة يا بابا!»

«بصي يا بنت الكلب، حسين الضبع ده تنسيه يعني تنسيه، وهترجعي تكملي دراستك في كلية الحقوق وهتخدي سيد

سيده، أنت بنت شمعون الصالح ملك الرخام في قبلي وبحري، سمعاني!»

تقف تميمة متجمدة الملامح في سكون تام إلى أن يأتيها هاتف بجانبها بصوت مسموع، ارتعشت حين شعرت بأنفاس تحرك خصلات شعرها، الصوت يتكرر، يتكرر أكثر، يعلو أكثر:

«أنا حامل، أنا حامل، أنا حامل من حسين الضبع، حسين الضبع أبو اللي في بطني».

أخرست تميمة شمعون وأصمت أذنه بالمفاجأة، والتي على أثرها لم يستطع سوى التنفس، بالكاد تحرك ليذهب إلى غرفته، تاركًا تميمة في أحضان أمها بدور.

يدخل زيتون عليهم ليجد المشهد ذاته.

زيتون شمعون علي الصالح،

أصغر أبناء شمعون وأكثرهم خروجًا عن النص، لم يتجاوز العاشرة من عمره، أسمر أقرب للسواد، صاحب أكثر شعر أشعث بالمنزل، له عينان سوداوان، نحيف، عرف بين أصدقائه بزيتون البربري.

«ايه ده انتوا لسه متقابلين! كنتوا واحشين بعض كده!»

«ادخلي ريحي يا تميمة لما نشوف النصيبة اللي احنا فيها دي».

«نصيبة! في ايه يا تميمة؟ ما لك في ايه يا ماما؟»

«اسكت أنت يا واد، ماتدخلش في كلام الكبار قلت لك ميت

مرة».

تنسحب تميمة من مجلسهم وتصعد للطابق العلوي لصابرة مرات سنجاب.

«طب ما دام ماليش دعوة بكلام الكبار، أنا جعان».

ظل زيتون ينوح كالأطفال لطلب الطعام من أمه بدور إلى أن وضعت له الطعام وأكل من خيرات ما قدمت له.

«ألف هنا يا حبيبي، ألف هنا، يلا بقى عشان تتسبح».

«أنا عاوز أنام يا ماما، مش قادر».

«وهو أنت بتعمل حاجة، أنا اللي بحميك يا عين أمك، يلا».

«ماما أنا امتي هستحمى وحدي وأقفل عليا باب الحمام؟»

«لما تبطل تصوت وتعيط في الحمام يا ابن شمعون».

«مين بيخبط على الباب؟»

«افتحي يا صابرة أنا تميمة».

تفتح صابرة الباب لتميمة بإحدى يديها، وباليد الأخرى قطعة من الحلاوة مرتدية كومبليزون داخلي لونه خمري كلون جسدها لا يخفي شيء من تحته، التقطت تميمة أنها لم تأت في أنسب وقت لصابرة.

«ادخلي، ما لك متسمرة مكانك! مابتتكشفيش على نسوان يا بت، تعالي، تعالي، خير ربنا كتير».

دخلت تميمة وسط قلق وتوتر ظهر على ملامح وجهها.

«سنجاب أخويا مش هنا، صح؟»

«لا في المطبخ بيعمل لي الحلاوة، ما لك يا هبلة في ايه؟!»

«طيب، طيب، بصي يا صابرة، أنا ربنا يعلم بعتبرك زي أختي».

«ضحكتيني يا بنت شمعون، بصي يا حبيبتي، ولاد شمعون كلهم مافهمش خير يا حبيبتي، بلا أختك بلا أمك، أختك دلوقت عشان محتاجة لي، لكن ساعة الجد والخروجات والحلو كله مع هند بنت الأكابر طبعًا، ما أنا بنت البطة السودة، ايش يوصلني للأسياد، المهم، ما لك في ايه؟ أرغي».

تجلس صابرة أرضًا بينما هي منهمكة في نتف قدميها، وترمي اللوم والعتاب على تميمة.

«أنا عملت نصيبة النهارده يا صابرة، قلت لبابا وماما إني حامل عشان يرجعوني لحسين».

«وأنت مش حامل يا أختي؟ ولا المشكلة إنك حامل؟ هاتي من الآخر».

«لا مش حامل، مش حامل».

«امال مين اللي طلعت حامل في الأخر؟ أمك؟»

«يوه يا صابرة، أنا مش بهزر، وأنت واخدة كل الكلام هزار».

«لازم اخده هزار يا بنت المفكوكة، ما أنتي لو مش حامل قلتي

ليه كده؟»

«ما هو مش أنا اللي قلت».

«اخلصي يا حبيبتي، مش وقت فوازير نيللي وشريهان، عاوزة ألحق أخلص قبل سنجاب مايطب علينا».

«ما أنا مش عارفة أقول لك ايه بس، سمعت صوت في ودني جامد قوي واحدة بتقولي أنا حامل من حسين الضبع، أنا حامل من حسين الضبع، صوت قريب من صوتي، لقيت نفسي بقولها من غير ما أفكر».

«بس، بس، أخوكي طالع، أنا سامعة صوته بيتكلم في التليفون، قعدتي تتمرقعي لحد ما جه، طب أنا هلم الدنيا وادخل أخود دوش، ونتكلم على رواقة، أخوكي هياكل لقمة وهيتقلب ينام زي البغل، استني، استني».

سنجاب شمعون علي الصالح،

شاب خمري اللون، ذو شعر خفيف أسود، يمتلك ملامح حادة، له عينان سوداوان، أسفل وجه لحية غير متساوية الأبعاد، يمتلك أعلى قامة في نسل شمعون، له جسم رياضي، نمت عضلاته منذ الصغر في حمل الرخام بمحل والده، فسنجاب الابن الوحيد الذي اتبع خطوات تجارته.

«البيت منور يا تميمة، محدش بقى يشوفك عندنا، امال صابرة فين؟»

«مابتلحقوش توحشوني يا سنجاب، البيت ده كأنك لو تفيت

فوق في وشك، ولو تفيت تحت في عبك، صابرة بتاخد دوش».

«ماشي يا تميمة، الحاج كان بيقول لي إنك هتكملي دراستك، هروح أسأل لك في الجامعة ونشوف هنعمل ايه».

«هو أنت مبسوط في الشغل مع أبوك في المحلات».

«وماتبسطش ليه، ما هي كلها هندسة هي فرقت الهندسة عن الجرانيت والرخام».

«ربنا يكرمك يا سنجاب، طيب ممكن تستنى على موضوع الكلية ده، الأول لما تقعد مع بابا».

«اقعد مع بابا، يا بت أنت هبلة أبوكي لسه قايل لي الكلام ده الصبح».

«ما هو الكلام ده كان الصبح».

«مش فاهم، قولي يا تميمة ايه اللي جد؟»

«يا ألف نهار أبيض، مش تبارك يا سنجاب لتميمة أختك، أختك حامل».

خرجت صابرة من الحمام يسبقها الدخان إلى الصالة ملتحفة بفوطة على رأسها كالأفعى، ملتفة بفوطة حمراء اللون، لحقت بتميمة لتخرسها عما أرادت البوح به لأخيها سنجاب.

أثقلت الصدمة أنفاسه ليخرج من صدره بقدم عرجاء.

«طيب يا تميمة، ألف مبروك، بس كده الموازين اتقلبت خالص».

هدأت أنفاس تميمة للأمر بعد أن تلقت شفرة إرسال خاصة بصابرة من حركة عض على شفتيها لتفهم سريعًا ما يدور بعقل صابرة.

«عمومًا أنا ليا قاعدة طويلة مع الحاج النهارده، وفي خبر حلو يمكن يهون عليه، ماتقلقيش أنت يا تميمة، خلي بالك من نفسك المهم، أنا داخل أريح شوية يا صابرة».

«ماشي يا قلبي، بسرعة كده؟ طيب، طيب، نام وريح يا روح الروح، ولما تصحى نبقى نحكي».

أغلق سنجاب بابه على نفسه فتنفست تميمة الصعداء.

«ما لك يا خايبة؟ قلقانة ليه؟»

«أنا كنت هقول له يا صابرة إني مش حامل ولا حاجة ويشور عليا أعمل ايه!»

«والنبي ايه! هو بقى سنجاب اللي هيشور عليكي يا هبلة، يا اختي متاخديش من الحمارة الضعيفة غير الزراط القوي».

«اخس عليكي يا صابرة، ماتقوليش كده على سنجاب، ده أطيب اخواتي والله».

«آه ما هي دي الوكسة، إنه طيب، حد غيره كان زمان تجارة (شمعون ورسال) كلها في جيبه، لكن أقول ايه، رسال بيجي من السنة لسنة يجيب الفلوس وأبوكي يفرتكها».

«يا ستي ماله ومال شريكه هو حر، وبعدين مش معنى إن

سنجاب اللي مع أبويا يبقى ياكل حقي وحق أخواته».

«شفتي بقى إن ولاد شمعون كلهم مافيهومش خير، كأن سم الغدر مبخوخ في عروقهم، قلبتي على أمي في ثانية، أول ما جبنا سيرة فلوس، أمشي يا بت، أمشي انجري أطلعي، أنا غلطانة».

«أنا طالعة، أنا اللي غلطانة إني جيت لك أصلًا».

تترك تميمة صابرة، تقف مترددة أمام باب شقة دهار، تفتح هند السقا باب الشقة لتضع كيس القمامة.

«واقفة عندك ليه يا تميمة كده؟»

«لا مفيش، أنا أصل كنت...»

«عادي على فكرة، ممكن ماتقوليش كنتي بتعملي ايه على السلم عندك، تعالي، تعالي نشرب كوبايتين شاي».

أفسحت هند الطريق لتميمة لتسهل لها المرور داخل الشقة.

«بصي يا تميمة، أنا عارفة إننا مش صحاب قوي، بس أنت شكلك مش طبيعي ومخبية حاجة، وعمومًا أنت ممكن تحكي لي عادي لو حبيتي».

«لا يا هند والله أبدًا، أنت عارفة أنا بعتبرك أنت وصابرة زي أخواتي».

«بعيدًا طبعًا عن إنك حتطيني أنا وصابرة في نفس المكانة، بس يا ستي أنا عاوزاكي تفضفضي».

امتلكت هند أسلوبًا ناعم كالحية بملمسها لتتمكن من حصد أكبر قدر ممكن من المعلومات داخل منزل شمعون.

استسلمت أخيرًا تميمة لمعسول القول من هند بعد أن استشعرت دفئ كلماتها.

«أنا واقعة في مشكلة يا هند، مشكلة كبيرة».

حاولت هند مستخدمة كل أسلحتها باذلة أقصى ما أوتت من نفاق لتظهر حسن النية والاهتمام والحب لتميمة، فقط لتشبع فضولها.

«يا نهار أبيض، قولي يا حبيبتي، فضفضي».

ارتمت تميمة باكية في أحضان الأخيرة بعد سماع جملتها، فكم اشتاقت لمثل هذا الحضن من هند، فهي في حرمان دائم من الإحساس بالاهتمام من كل من بالمنزل، مسافات فاصلة بينها وبين ذات أختها، أمها دائمًا تنعتها بأنها سيئة السلوك، فنجحت هند أن تلمس جدار قلبها الآن بكلماتها، فربما أصبح ولائها لها، وربما صنعت منها جبهة قوية ضد باقي من بالمنزل.

«حسين الضبع، أنا بحبه ومفيش أمل الدنيا ترجع، وبابا قفل القصة دي خالص، مش عارفة أعمل ايه!»

«وهو بيحبك؟»

«هو أكيد بيحبني».

«لا مش أكيد، أنا عاوزة انتي تبقي متأكدة، وهو كمان يثبت لك

ده، المهم دلوقت اهدي، وأنا هقوم أعمل الشاي وتحكي لي بقى».

انتهى شمعون من التهامه لوجبة الغداء.

«تسلم إيدك يا بدور، اعملي لي كوباية الشاي وتعالي نقعد في البلكونة نستنى الواد سنجاب».

«حاضر يا حاج، ألف هنا يا أخويا».

رفع شمعون الصالح أطراف الستارة المسدلة في صالون شقته ليفتح الباب الزجاجي، يظهر من خلفه فارندا كبيرة على شكل نصف دائرة، سورها مليء بنباتات مختلفة الأشكال، الواضح منها نبات الصبار في مقابل أرض زراعية مطلة على فرع النيل.

يسحب شمعون كرسي ليجلس جوار السور.

«تعالى يا سنجاب، أمك بتعمل الشاي، أنت كلت ياض ولا انده على أمك تعمل لك لقمة تاكلها».

«الحمد لله أكلت والله».

«ياض قول، أمك عاملة صيادية تاكل صوابعك وراها، أكلة عمر أم صابرة ما داقتها».

«يدوم يا حاج، أنا كنت عاوز أفاتحك في حاجة ضروري، ومحتاج رأيك وشورتك يا حاج».

«أكيد موضوع حسين الكلب».

«لا، هو برضو أنا محتاج أتكلم معاك في موضوع تميمة وحسين،

بس الأول نتكلم في الشغل».

تدخل عليهما بدور بصينية عليها أكواب الشاي وتضعها جانبًا على منضدة صغيرة.

«أنا داخلة أصحي الواد زيتون عشان يقوم يقراله كلمتين ينفعوه، والحق المغرب، لو احتاجت حاجة انده عليا يا حاج».

«صلي في الأوضة الأول، وبعدين ادخلي له عشان مايتفزعش».

«حاضر يا شمعون، حاضر».

«ما له بقى حوار الشغل اللي عاوز تكلمني فيه؟»

«بص يا حاج، رسال كان باعت لي مناقصة رخام هندي، والمناقصة دي لازم ترسي علينا، عشان لو رست علينا، كده احنا بقينا في حتة تانية خالص، نقلة لينا كلنا».

ابتسم شمعون بطرف فمه ابتسامة ثقة وعلم بالمجهول.

«ماتقلقش هترسي».

«إن شاء الله يا بابا».

«ياض شمعون بيقول لك هترسي، تبقى هترسي، المهم عمك رسال قال لك ايه؟»

«قال لي لازم أسافر الهند في ميعاد أقصاه أسبوعين عشان أعاين الرخام قبل المناقصة، وهو هيجيب كل حاجة ويخلص ورقها ويدخل الشحنة من الجمارك».

سرح شمعون بخياله ليسمع جملة خضوب بأذنه أن جميع من بالمنزل لا بد أن يرحلوا في غضون أربعين يومًا.

«خضوب!»

«بتقول حاجة يابا؟»

«لا يا سنجاب، مشوار السفر ماتشلش همه، كل تكاليفك في جيبك خلاص، الموضوع الأهم حسين الكلب بقى وتميمة، صح؟»

«بص يا بابا، احنا كنا غلطانين يوم ما سقطت ومادخلتش امتحاناتها، وأنت حلفت عليها لما عرفت إنها رايحة جاية معاه ومابتروحش جامعتها، وقعدناها في البيت وجوزناها ابن الكلب ده، المفروض كنا كسرنا رقبتها وودناها تكمل جامعتها ورجلينا قبليها في الروحة والجاية».

«خفت من الفضيحة اللي عملوها في المعرض، والبت صغيرة وابن الكلب لفها صح».

«دلوقت خلاص احنا لا هنحاسبها ولا نحاسبه، في عيل في النص، طفل مالوش ذنب مين جابه، ماخترش إنه يكون موجود».

«أنا هربيه».

«يا حاج ربنا يديك طولة العمر وتربي ولاد ولاده، بس أبوه وأمه أولى بيه، وهو حقه يبقى وسطيهم».

لفحة هواء عصفت بهما فجأة لتسقط على إثرها أكواب الشاي، وأُغلقت فجأة زرقة السماء.

«خلاص، اطلع أنت دلوقت يا سنجاب وأنا هتصرف، يلا يا ابني الدنيا سقعت».

دخل سنجاب ومن خلفه شمعون مغلقًا باب الفارندة الزجاجي، ينظر من خلفه للسحب المتجمعة فيقفل الستارة ويدخل غرفته.

مرت الأيام والليالي ثقيلة على أكتاف شمعون، ظل يوم بعد يوم يشعر بدنو خطوة الشيطان، فربما باع نفسه بيده لكن شروط اللعبة لم يدركها وقتها، بل أدركها حين امتلك أرواح، أرواح ارتعد خوفًا أن تزهق بسببه، أرواح أبنائه، حينما باع نفسه للشيطان كان العقد مفتوح، وهو الآن في صدد سداد شرط الجزاء في حال تراجعه.

******

«واللي خلق الخلق يا ست فريال، كله باين قصادي، حتى بصي يا ستي كده».

«يا بت فين؟ يا بت مش شايفة حاجة».

«لا، لا، لا، شلبية سِيد من يقرا الفنجان، وفنجانيماينزلش الأرض يا ستي، كل حاجة قصادي، شايفة طريق أخضر، أخضر يا ستي».

«يوه، يا بت أخضر ازاي؟»

«أنا عيني وبصيرتي بتشوف الفنجان بالألوان، أنا شايفاكي أخر الطريق واقفة، وشعرك أسود ليل».

«يا بت أسود ازاي؟ أنا شعري أحمر، أحمر يا بت».

«يوه يا ستي أشوفه ازاي أحمر في البن يعني!»

«يا بنت الملدوعة، مش بتقولي فنجانك بالألوان».

«أحمر يا ستي فريال، والنبي أحمر أهو، وواقف جمبك النبي حارسه وصاينه راجل طويل عريض شنبه يقف عليه الصقر».

«الأدهم يا بت؟ شوفي كده».

«أيوة هو، هو بعينه سيدي الأدهم، وماسك في إيده حاجة مش باينة كده، لا هي رغيف عيش ولا هي... استني يا ست فريال، مش عارفة».

«ها يا بت، قولي شوفتي ايه؟ طلعت ايه نشفتي ريقي؟»

«رغيف، رغيف يا ستي، كبير قوي وأبيض».

«حلو، أنا جعانة برضو يا بت».

«ده معناته خير يا ستي، خير كتير، سيدي الأدهم معاه خير ليكي».

«أنا نفسي فيه يا بت، من يوم ما جه خد مزاجه من بنت الوسخة اعتدال، لولاش إني اعتزلت يا بت ماكنتش فوته من إيدي، بس أنا عاوزة في الحلال يا بت، مالكيش سكة تجيبه، أنا مش عارفة عاجبه ايه في اعتدال».

«بقى ست فريال الزهار فيه دكر في بحري ولا قبلي يقولها لا!»

«فيه، فيه واتخلق يا بت، آه يا ناري منها اعتدال الكلب بنت

العوجة، برمته وحطته في صدرها».

«شلبية تجبهولك راكع بحق الأسياد، ولو عايزاه في الحرام يحضر، ولو في الحلال وجب، سيبي لي نفسك يا ست فريال وأنا أخليه مايشفش نسوان في الدنيا غيرك».

«تكنش البت اعتدال عاملة له عمل؟!»

«والنبي يا ستي عملها أسود ومنيل، وده لو على ضهر جمل هدفنها بيه، اطمني يا ستي، الأدهم هيبقى ليكي يا ستي».

«أهلًا، أهلًا يا سي الأستاذ، مطرح فريال الزهار نور، وماقولكش، عندي الخدمة ايه، خمس نجوم، أنت تقعد كده وكل البنات تيجي لك وتختار، أنا سمعتي سبقاني، شعاري معروف، لا تدور ولا تحتار طلبك عند بنت الزهار».

«يا ست فريال أنا اللي جبني السمعة طبعًا، أنا أحب اختار».

«يا بنات فريال تعالوا هنا، الليلة عندنا ملك، ملك ولازمن يبقى ملك زمانه».

فريال الزهار.

امرأة في عقدها الخامس، درست وأتقنت فن العهر والدعارة، ليصل سيطها في البر والبحر، عروس مولد فرس بلا لجام، بيضاء كالشمع، يعلوها شعر أحمر كشعلة نار، ذات صدر ينقصه عمودان لحمله، من حين لآخر تجدد دماءها بتغير محل إقامتها بحثًا عن مشتركين جدد في عالم البغاء.

تتذكر فريال الزهار يومًا كانت تصف بضاعتها أمام الأدهم ترتيبًا القصيرة أمامًا والطويلة خلفًا، يتجول الأدهم بينهن بأريحية ليقطف ما يحلو له، وكأنه شهريار الزمان، ليتوقف أمام أكثرهن سمرة بل أكثرهن احتراقًا.

«هي دي».

«دي مين؟ يا نهار أسود، اعتدال الاسمر يا سي الأستاذ؟!»

«اعتدال! أنت اسمك اعتدال؟»

حينها أطرب اسمها بصوت الأدهم مسامعها لتشعر بالنشوة تحتلها لتضع يدها في منتصفها وتأخذ خطوة للأمام لتخرج من الصف.

«بيضالك في القفص يا بت الوارمة».

«ست فريال، ست فريال، روحتي فين يا ست؟!»

«ايه يا بت يا شلبية! أنا عاوزاه يا بت، واللي انتي عاوزاه».

«بس طلبك مش عندي، طلبك عند الست أم غراب».

«أم غراب!»

«أم غراب دي سِيد من يجلب ويفرق».

«أم غراب، أم غراب، المهم يجي».

«هيجي يا ست، بس أم غراب لازمها تراتيب، أم غراب مابتشتغلش طول السنة، أم غراب لها موسم كده زي الفاكهه».

«إيدي على كتفك يا شلبية، بس مفيش حاجة محوقة مع بنت الأسمر، أنا حتى ياختي كرشتها، وكل شويه يغيب يغيب ويجي يسأل ومايعرفش إني أنا اللي طردتها».

«غلطانة، غلطانة يا ست، حجاب فراق الأول، كان لازمن عشان ينساها، بس ملحوقة».

«أهو اللي حصل حصل بقى، شوفي لي موسم أم غراب امتى يا بت وأنا معاكي».

«زيتون، زيتون، زيتون أسود أخضر يا زيتون، زيتون يا زيتون، منه مخلل ومنه زيوت».

التفت مجموعة من الأولاد داخل مدرسة زيتون من حوله ليتمو طقوس التنمر عليه، والتي كانت كطقس يومي، لكن ذلك اليوم بالأخص زادت جرعة التنمر على زيتون، وفي لحظة انفجر زيتون فيهم جميعًا، ليقفز فوق أحدهم ليمضغ شحمة أذنه، وسط صراخ وذهول منهم، ويضرب الفتى الآخر بقبضة يده، وبذات اللحظة كانت تقف أبلة زهيرة، ووقعت عيناها على هذا المشهد من نافذة مكتبها الزجاجي، لتخرج مسرعة من مكتبها تسلك تجاه زيتون والأولاد.

«أنت يا ولد يا زيتون، أنت يا ولد ايه اللي أنت هببته ده؟ أنت ولد مشاغب ومحتاج تتعاقب، وعقابك عندي، امشي قصادي اتفضل على الفصل».

تأخذ زهيرة مجموعة الأولاد وعلى رأسهم زيتون، تقودهم كالغنم أمامها لتصل إلى الفصل.

تدخل الفصل بعد انتهاء فترة الفسحة ليقف الجميع، أبلة زهيرة تقف أمامهم لتصدر حكمها على زيتون، وذلك في حضور الطلاب وأستاذ حليم رفاعي مدرس اللغة الإنجليزية بالمدرسة.

«زيتون يا أولاد النهارده اقترف ذنب كبير جدًا، وانا شفته من شباك مكتبي، وأخدتهم عندي المكتب، وبعد ما سمعت كلام زمايله، اتضح إنه اعتدى على أكثر من زميل ليه داخل الفصل، واتضح إنه دي مش أول مرة، أنا عاوزة من كل الطلاب دلوقتي اللي في يوم من الأيام زيتون ضربه يرفع إيده».

بعد تفكير شيطاني للانتقام، وتفكير عميق قام بعض الطلاب برفع أيديهم.

«بس أنا يا أبلة زهيرة ماضربتش حد والله!»

«اخرس يا زيتون واقف في النص هنا وحط إيدك ورا ضهرك».

برأس منكس يستمع زيتون لحكمها ويتجه في المنتصف ويضع يديه خلفه ينتظر الحكم القادم من أبلة زهيرة.

زهيرة مديرة المدرسة، امرأة تجاوزت عقدها الخامس، مرت بأزمات عدة تركت العديد والعديد من الشروخ داخلها، مما ترك أثر بل ترك حفريات من الجيفة لتسقي أجيال منها، تزوجت وانفصلت، فتزوجت وترملت، حرمت من الأمومة فتمارس الجفاء مع كل من حولها، بداية نشأتها في دار للأيتام، وذلك السر الأعظم الذي دفن بصدرها أعوام، استمدت قوتها من كونها مديرة لمدرسة هي أول من تولى إدارتها.

«ودلوقت كل صاحب حق أبلة زهيرة هترجع له حقه، ودلوقت كل واحد في الفصل زيتون ضربه، أبلة زهيرة هتدي له الحق يضربه نفس الضربة».

أستاذ حليم الرفاعي مدرس أول لغة إنجليزية، وبالفعل اختيار اللغة هو الأنسب لشكله العام، تميز بعينه الزرقاء، وشعره بني فاتح ذو أطراف ذهبية، ذو قوام رياضي.

«لا طبعًا ميس زهيرة، ده حكم مش عادل، وأنا شايف إن زيتون ولد هادي ومتميز جدًا، أنا شايف إن الحكم يبقى للأخصائي الاجتماعي».

«محدش بيشوف هنا، أنا بس اللي بشوف، أنا صاحبة القرار هنا، يلا يا أولاد نبدأ، كل اللي رافع إيده يتفضل هنا».

«ميس زهيرة أنا مش هقبل بالفقرة غير الإنسانية دي، أنا هستأذن وهخرج».

«اتفضل يا مستر حليم، استناني في المكتب».

انسحب حليم من الفصل لتكون أخر نظرة منه تتلقى استعطاف زيتون.

زيتون يقف مرتعد منكس الرأس، يتلقى أول صفعة على وجه من زميله، تتلوها لكمة بقبضة زميل آخر، تسبقها صفعة على مؤخرته، وكل تلك الصفعات هي طعنات في صدره وسط ضحكات كل الحاضرين، ليتحول المشهد من مشهد تأديبي لمشهد تحقيق أهواء سادية.

وسط تلك الطعنات تنهمر دموعه فلا يرى أمامه سوى الفراغ، بل يستشعر فقط الصفعات والطعنات.

إلى أن انتهى الوضع وسُمِح له بالانطلاق، فأخذ يجري بأقصى عزم يملكه إلى أن دخل حمام المدرسة وأخذ يبكي ويبكي بصوتٍ عالٍ.

يقف خارج الحمام مستر حليم ينتظره، يخرج زيتون ليرتمي بحضنه لدقائق، يمسح حليم دموعه بيديه.

******

«حربك يا بنتي مش مع حد، حربك مع النفس، النفس اللي الشيطان غواها، الشيطان اللي دخلها من ضعفها، وعلى قد ضعفها شيطانها غواها، علي الصالح يا بنتي باع روحه للشيطان، والخوف مش عليه، الخوف على العيل اللي على كتفك، العيل ده لحمه مسقي بمال الشيطان».

تجلس هدية بسكون تستمع حديث الشيخ حراز بقلة حيلة، فقط تنهال دموعها، ترتعد ضلوعها من رجفة قلبها خوفًا على ابنها، تحتضنه وكأنها قطة أرادت ابتلاع صغيرها خوفًا عليه.

«اعمل ايه يا شيخ، شور عليا أبوس إيدك، صالح مش شايف حد، لا شايفني ولا شايف ولده، ليل نهار قاعد في الأرض، ديك النهار لقيته داخل يتسبح والمصحف في إيده، ولما وقفت له على باب الحمام نزل فيا ضرب، وكأنه عشر رجالة في بعض، أنا حاسة إن شيطانه راكبه، أبوس إيدك، أبوس إيدك ساعدني».

تترك هدية الشيخ حراز هي وولدها بوعد من الشيخ أنه سيجتمع هو ورجال الدين ومن معهم من رجال ذوي علم بفك الأسحار ليحضرو لمنزلهما لإنقاذهما من براثن الشيطان النجسة، وإلى أن يحدث نصحها ألا تجامع علي الصالح، وألا تفارق أذن ابنها إذاعة القرءان الكريم، وأن ترش أركان منزلها بالملح.

جلس الشيخ حراز وحده بالمنزل يقرأ بالمصحف أمامه إلى أن دخل الحمام ليقضي حاجته، وفي رحلة وصوله للحمام بخطاه الثقيلة، فقد تجاوز سن الثمانين، شعر بوجود أحد بالمنزل معه، لكنه لم يهتم وأخذ يقرأ آيات من القرءان، وآية الكرسي، إلى أن وصل إلى باب الحمام ليفتح الباب ويدخل يده متحسسًا جدار الحمام ليصل إلى قابس النور، ليضغطه دون استجابة فقرر الدخول.

«أعوذ بك من الخبث والخبائث».

يتحسس جدران الحمام إلى أن وصل لمنتهاه، حيث مكان قضاء حاجته، صوت قطرات الماء خلفه من الصنبور وكأنه يخبره أن أحدهم هنا، إلى أن أنهى ما بدأه، واتخذ طريقه في اتجاه العودة، حين وصل لباب الحمام فإذا بالباب يقفل فجأة ليصدمه برأسه صدمة تُخل توازنه ويقع جسده النحيل أرضًا على إثرها، فترتطم رأسه بأسفل الحوض ليغرق بدمائه، يتحسس رأسه في محاولة يائسة منه لكتم جرحه، يزحف أرضًا في الظلام محاولًا الخروج من الباب.

فجأة ينفتح الباب مرة أخرى كما أُغلق، يزحف للخارج متجهًا زحفًا لباب شقته، ليسمع صوت طرقات على باب شقته، يستند

على ركبتيه ليفتح الباب لأي منقذ.

«شيطانك راكبك، شيطانك راكبك».

يدًا تمتد من باب شقته لتكتم أنفاسه وترفعه إلى أعلى لترتطم رأسه بالسقف في مرات متتالية إلى أن زهقت روحه وصعدت للسماء.

ذاع خبر مقتل الشيخ حراز في البلاد إثر وقوعه في الحمام وارتطام رأسه، ليترحم عليه كل من سمع خبر وفاته عدا هدية، فقد كانت أخر من قابله وتحدث معه، تستشعر الخوف من كون ما حدث له ليست صدفة بل هي من دلت الشيطان على طريقه.

مرت الأيام ثقيلة على هدية داخل منزل علي الصالح، فتجنبتها النساء في جميع مجالسها خوفًا من كونها لها ضرة من الدرك أسفل الأرض، انقطعت بها كل الصلات، لم تجد من تتحدث معه أو يمد لها يد العون، فاليد الوحيدة قد بترت من الأساس.

تتوالى الأيام تفرق بينهم لا تجمعهم، صوت القرءان لا ينقطع من المنزل طيلة النهار، إلى أن يحضر علي الصالح ليغلق المذياع، تنكمش هدية داخل غرفة شمعون لتصبح حدودها باب الغرفة، بينما لا يجمعها بزوجها مجلس.

******

«ما لك يا زيتون يا حبيبي؟ في ايه يا واد؟ أنا أمك محدش في الدنيا كلها يحس بيك غيري، يا واد أنا اللي شيلتك في بطني، أنا دونًا عن العالم اللي طعمتك من أكلها، واديتك من صحتها لحد ما

جيت للدنيا، وكبرت اهو وبقيت راجل، فكرك بقى أمك دي مش هتحس بيك؟!»

«اشمعنى أنا يا ماما الوحيد اللي في اخواتي طلعت كده؟»

«كده ازاي يا ابني؟ مش فاهمة! فهمني بس بالراحة».

«اشمعنى طلعت زيتون البربري!»

تضحك بدور بصوتٍ عالٍ محتضنة زيتون:

«يا عبيط، خلقة ربنا مافيهاش اشمعنى، طب اشمعنى ذات أختك ربنا ابتلاها في رجليها، ولا تميمة ربنا ابتلاها في جوزها، ربنا يا حبيبي مقسم الأرزاق، وحده سبحانه هو بس اللي يعلم ويدري اشمعنى، هو ليه القسمة واحنا لينا الرضا يا حبيبي، أنت في حد ضايقك ولا قال لك كلمة في المدرسة؟ قل لي يا حبيبي، وشمعون أبوك يروح يدكها على راسهم».

«لا يا أمي، أنا مش عاوز بابا يعمل حاجة، أنا راجل ومش عيل روحت عيط لكوا عشان تجبوا لي حقي يا ماما».

«راجل وسِيد الرجالة يا زيتون، طب يلا اسبقني على الحمام عشان تتسبح».

«طب وفي راجل وسِيد الرجالة أمه لسه بتحميه؟»

«آه في، ده أنا بدلعك، يلا يا واد يلا».

قامت بدور بتحضير ملابس زيتون وأخذتها إلى الحمام منادية زيتون ليأتيها متأففًا، وتبدأ بتحميمه حتى تنتهي وتلفه بالبشكير،

ليخرجا من الحمام وتغلق النور خلفها.

تتعمد بدور دومًا اختيار الوقت الأنسب لحمام زيتون أن يكون المنزل فارغ من الجميع حتى لا تتسبب في حرج لابنها كونه مقتنع أنه تخطى هذه المرحلة، لكنها لا زالت مقتنعة ألا تتركه وحده بالحمام منذ ذلك اليوم، ولم يكن ببعيد عندما دخل للاستحمام وأغلق عليه الباب وأخذ يصرخ ويصرخ داخله، وكل من بالمنزل يصرخ خارجه، إلى أن انفتح الباب ليجدوا الحمام فارغ، ليلقى الجميع صدمته بعد البحث عنه تكرارًا في المنزل، إلى أن أتى شمعون ودخل غرفته وخرج به إليهم ليخبرهم أنه كان غائصًا بالنوم في سرير شمعون، وربما أنهم لم يروه من القلق والتوتر، لكن عندما تحسست بدور رأس الصغير وجدتها مبللة، فكان ذلك أكبر دليل أنه كان بالحمام، وتوالت صدمتها عندما سألت صغيرها عما حدث، فلم يتذكر شيئًا عن دخوله إلى الحمام من الأساس.

ألبست صغيرها ووضعته بفراشه، وأخذت تغني جواره بصوتٍ هادئ إلى أن غاص بالنوم، وأغلقت باب الغرفة عليه، فسمعت صوت خرير ماء قادم من الحمام، فربما نست غلق الصنبور، توجهت إلى الحمام لتجد النور مضاء، تسمرت لحظات وأكملت طريقها إلى أن دخلت الحمام، وبالفعل وجدت الصنبور مغلق، وقفت بدور تتجول بنظرها ومدت يدها لمكبس التيار لتغلقه، وفي هذه اللحظة وهي تغلق النور لمحت كيان أبيض في نهاية الحمام، فأعادت إضاءت المكان، لتجد امرأة عجوز ذات شعر أبيض كالقطن، ترتدي جلباب أبيض اللون، تمسك ممسحة بيدها منهمكة في تنظيف البالوعة جوار المرحاض، تقف الكلمات في

حلـق بـدور وتسـير قشـعريرة بجسـدها وتشـعر بـدوار شـديد، فتتمالك أعصابها لتتذكر في صباها كل حكايات الجان وضعفهم وعدم قدرتهم على إيذاء أي إنسان مسلم.

«انتي مين؟ وايه اللي جابك هنا؟»

تثبت يدي العجوز لتسقط منها الممسحة ثم تتبخر وكأنها عدم، تدير وجهها لبدور وتنظر لها بعين سوداء بالكلية.

«مرتاحة معاكوا».

تسمرت بدور لتسترجع كلمة العجوز في محاولة منها لفهم ما قالته لتستطرد قائلة:

«انصرفي! انصرفي!»

تضحك العجوز بصوتٍ عالٍ مدوي كاد يصم أذن بدور.

«أنا مرتاحة معاكم، وده مكاني، وقولي لولدك الصغير لا ائذيه ولا يئذيني، لا ائذيه ولا يئذيني، ابنك بيعمل حمامه في بيتي، يعمله في مكانه مش في الأرض».

أنهت العجوز حديثها دون رد من بدور، ينطفئ النور من تلقاء نفسه، تفتحه بدور مرة أخرى لا تجد أمامها سوى الخلاء.

يجلس الجميع من آل شمعون يستمعون لرواية بدور دون اقتناع تام لما حدث.

«أنـا مـش مجنونـة يـا شـمعون، وأنـا اللـي شـوفته ده زي مـا أنـا شـايفاكوا قصـادي، ومتأكـدة منـه كمـان، البيـت فيـه حاجـة مـش

مريحاني يا شمعون».

«بيت شمعون مش مريحك يا بدور دلوقت؟»

«أنا ماقولتش كده يا حاج، بس أنا اللي شوفت وسمعت يا شمعون».

«ايه رأيك يا بابا نجيب شيخ يقرا في البيت ويقرا لزيتون أخويا».

«دهار، أنا اللي اقول ايه اللي يتعمل!»

«آه يا عمي اللي أنت شايفه طبعًا، بس...»

«مفيش بس يا بنت الأكابر، عندك شقتك اطلعي احكمي وقولي ايه ينفع وايه ماينفعش».

أخرس شمعون أبناءه ليبتلع كلٌّ منهم كلماته، فمنهم من نوى التحدث، ومنهم من ابتلع فكرته داخله، فدام الصمت بينهم، ودامت دموع بدور تنزل خوفًا على صغيرها.

«ها يا محاسن، مش عاوزة تقولي رأيك أنت كمان؟»

«لا رأيّ لنفسي المشرحة مش ناقصة قتلة، اللي انتوا شايفينوا اعملوه».

انسحبت ذات وتركت مجلسهم، ليلحقها دهار وهند وسنجاب وصابرة.

دخل شمعون غرفته وأغلق بابه عليه وأمسك هاتفه ليحدث

خضوب.

«ده مش اتفاقنا يا خضوب!»

«اتفاق ايه يا شمعون؟»

«بتسلطي الجن على البيت ليه؟»

«أنت فكرك خضوب بتسلط الجان الأهبل بتاع الحمام! لا يا شمعون، أنا اتفاقي مع طارش».

«بس أنت قولتي طارش ملوش دعوة غير بالكنز اللي في البيت بس، بس اللي حصل ده معناه ايه؟»

«طارش ملك الجان مسؤول عن الكنز، بس ماتنساش ده ملك، وله خدام من الجن، ومكان ما يحضر له خدامه بيحضروا معاه، اللي بينفض، واللي بيأكل، واللي بيحرس، واللي بيلعب، سيبهم يلعبوا».

«يعني ايه يا خضوب؟ أنا لو حد من ولادي اتأذى أنا مش هسكت، وساعتها هتبقى النار على الكل، وهحرقك».

«فات الأوان، أنت أسير، لا تعرف تحرق ولا تتنيل، تحرقني بإيه! بالمصحف اللي لابسه في نعلك، أنت بعت نفسك ليا، أنا اللي أقدر أحرقك، وأقدر ائذيك لو عايزة، وممكن اخليك فوق الناس برضو لو عايزة، انسى موضوع الحرق اللي بتشوفه في الأفلام، أنا مسخرة لك كل حاجة، وخلي بالك طارش مش هيطلع الكنز إلا لما تجيب له الزيبق الأحمر، واللي هيجيب الزيبق سنجاب، هيجيبه من الهند».

«وليه ابني اللي يجيبه؟ ما يجيبه رسال!»

«لا رسال ده منيماينفعش، الزيبق اللي يجيبه لازم يبقى إنسي، إنسي من أصل نجس، وأنت أصله، طارش بس حب يقول لك إن مفيش رجعه، هو عارف اللي بيدور بعقلك».

«يعني ايه يا خضوب؟ رسال منك يعني ايه؟»

«أنت فاكر رسال إنسي؟! رسال هيجيلك من أخر الدنيا عشان يشاركك ويرمي المال تحت رجلك، رسال يا شمعون جني من أصل جني، بس جن طيب بيحب يعمر ويشتغل، بيحب الفرهدة، بيحب يكسب بعرق جبينه، بس برضو جن، أنا خلقت عالم من حواليك، خلقت كل اللي فيه، هتعيش عمرك ماتعرفش مين منهم إنسي ومين جني، بس اللي هتعرفه إنك عايش في دايرتي عشان تنفذ وبس، مش هتعرف حلمك من الواقع، مفاتيح عقلك بخيالاته كلها في إيدي، إيدي أنا وبس، إيد خضوب، حبيبتك».

أغلقت خضوب الخط ليضع شمعون الهاتف في جيب بنطاله تعتصر الصدمة عقله لتطحن عظم جمجمته بين ماضٍ فات وحاضر يسمعه للتو من خضوب، يتذكر يومًا قد رأى فيه ذلك الرجل الأصغر منه سنًا لامعًا براقًا في سوق الرخام في مزاد وقد أوشك شمعون أن يخسر كل ما يملك من مال إلى أن ظهر الأستاذ رسال.

رسال رزق كما نعته السائق الخاص به ودخل المزاد.

رسال رزق،

شاب طويل، نحيف، أسمر، ذو شعر طويل مربوط ناعم أقرب للهنود، تزين ذقنه لحية منتظمة الحواف، دخل المزاد ليجلس جوار شمعون، وكلما فاق السعر في المزاد أشعله رسال إلى أن وصل لزروته، ليزج بشمعون ليرسو العطاء على شمعون الصالح بصفقة من أكبر صفقات الرخام في الشرق الأوسط أكمله، لكن الآن لا يمتلك شمعون المال للدفع، فللتو استشعر بقيود السجن تلتف حول يديه، فمن وسوس له دخول المزاد الآن هي خضوب، لكنها الآن هل ستيسر المال له كما فعلت في السابق؟ أم ستتركه ليلقى حتفه في السجن؟

خرج الجميع من قاعة المزاد ليدوم الحال بشمعون، يقدم قدم ويؤخر قدم خوفًا من مصيره، إلى أن تدخل رسال.

«حاج شمعون، ممكن اتكلم معاك يا حاج قبل ما تقول حاجة للجنة المزاد؟»

«منك لله؟ منك لله؟ أخدتني في سكة المزاد وضيعتني، ضيعتني».

«اهدى يا شمعون، اهدى، احنا سكتنا واحدة، أنا عاوز أشاركك».

«وأنا مش عايز أشاركك».

«وأنت لو مشاركتنيش هتتحبس يا شمعون، والمزاد هيروح منك، والعطا هيرسى عليا».

أشار رسال لسائقه الخاص ليمد يده بشنطة جلد سوداء ليأخذها رسال ويفتحها ليظهر فيها أموال طائلة ويعيد غلقها مرة أخرى

ويعطيها للسائق مرة أخرى.

«شمعون حلك معايا ورزقك في إيدي، لو قلت ماشي نمضي عقد الشراكة دلوقت، وقبل ماتقرر هتكون عارف إن شريكك هيجي لك مرة في السنة، وكل أموالي تحت أمرك، ومعارض الرخام هتبقى باسم شمعون ورسال، وأنا كده كده محلاتي بره مصر بين المغرب والهند، بس كنت محتاج افتح في مصر، ومفيش غيرك ملك الرخام والجرانيت أشاركه، وبعد المناقصة والشراكة بينا أنت شأنك وشأن ولادك هيتغير وتبقى من أسياد، البلد ولو رفضت يؤسفني أقول لك هتعيش جهنم على الأرض، لا آسف، هتعيش جهنم في السجن».

عاد شمعون مرة أخرى ليضع رأسه بين كفيه ضاربًا جبهته بيده صارخًا لعقله.

«كنت فين، كنت فين، اتمسح عقلك؟ يعني رسال جني! ويا عالم مين تاني اترمى في سكتي وسكة ولادي منك يا خضوب، مابقتش عارف مين الصح ومين الغلط، مين إنسي ومين جني، مين لصالحي ومين عاوز يضرني، لا، لا لازم حل، أنا تعبت، تعبت ومش عاوز كنز، مش عاوز غير اعيش مرتاح وسط عيالي».

يخرج شمعون من غرفته مسرعًا ليجد بدور تبكي بحالها.

«شمعون أنت رايح فين؟»

«رايح اشوف حل».

«أنت مصدقني يا شمعون؟ مصدقني صح؟»

نظر لها شمعون نظرة قلق بوجه أسود، وترقرقت دموعه، لأول مرة تلمح بدور تلك الدموع بعينيه.

«مصدقك يا بدور، مصدقك».

******

«أنت يوم ما تفكر تجوز يا حِمِيدة عليا هقتلك، وهقتل نفسي، أنت بتاعي وحدي».

«نفسي في حتة عيل يا ذات!»

«لا يا حِمِيدة، مش مكتوب لك عيال مني يبقى مش مكتوب لك عيال في الدنيا، ولو مكتوب لك عيل من غيري مش هتعيش وتربيه، أنا بقول لك اهو».

تجمع ذات المحاسن وحِمِيدة منضدة صغيرة لتناول الغداء، تجلس على طرفها محاسن وتضع قدمها العرجاء أمامها على كرسي صغير، وتمسك بيدها سكين صغير استخدمته في تقطيع الخبز ملوحة به إلى حِمِيدة.

«اعقلي يا محاسن ونزلي السكينة، وفكري بعقلك، أنا بحبك ونفسي يبقالي عيل منك، بس مفيش فايدة ولا في أمل، والعيل اللي هجيبه هيبقى ابنك برضو».

«العيل اللي هتجيبه هيموت في بطن أمه قبل ما تشيله وتفرح بيه».

«أنت ايه قلبك حجر يا شيخة، أنت بور، أرض بور مابتطرحش

غير غل».

احتد النقاش بين ذات وحِمِيدة ليصل للتشابك بالأيدي بينهما، ليمسك بيدها الممسكة بالسكين لتفلتها وتغرسها في ذراعه، ليلحقها بصفعة على وجهها فتسقط أرضًا ويدوس على قدمها العرجاء، لتصرخ بأثرها فيتركها تتلوى ألمًا وحدها بالشقة.

«عاوز مني ايه يا رب تاني، هتاخد مني حِمِيدة، خده خده، مش هتلاقي حاجة تاني فيا بعده تاخدها خلاص، مابقاش فيا حاجة، مبقاش فيا حاجة».

تزحف على بطنها إلى أن تصل لحمام شقتها، تستند بيديها على الباب لتحمل جسدها المترهل لتقف على قدمها، تدخل الحمام وتغلق الباب من خلفها، تنظر في المرآة أمامها لتغسل وجهها من أثار البكاء.

تقع عيناها على آية الكرسي المدلاة من صدرها، لتنزعها دون تفكير وتلقها في المرحاض وتجذب شلال الماء عليها.

يجري حِمِيدة على سلالم المنزل من أعلى السطح لأسفله ليخرج من البوابة الحديد غارقًا بدمائه، يستقل عربته الصغيرة من أمام منزل شمعون منطلقًا متجاهلًا صراخ تميمة وبدور.

«اطلعي يا تميمة الحقي أختك يا بنتي، مش قادرة رجلي مش شايلاني يا بنتي».

«أنا خايفة يا أمي أطلع وحدي، طب هعدي اخد صابرة معايا».

«اطلعولها يا بنتي، أنا خايفة تعمل في نفسها حاجة، ولا ترمي

روحها من السطح».

تفتح تميمة باب المنزل لتجد ذات أمامها، تقف دون أن تنطق بكلمة.

«بسم الله، ماما ذات أهي يا ماما».

«حصل ايه يا بنتي، قوليلي حِمِيدة نازل غرقان في دمه وخد في وشه وطايح، وخد العربية ومشي، يا بت يا تميمة كلميه يا بت اطمني عليه».

بجمود وتبلد تام تزيح ذات الجليد من ملامحها ونطقت بعد إلحاح بدور وتميمة.

«ماتقلقوش عليه، هو هيبقى كويس، هيبقى كويس».

«هيبقى كويس ازاي يا بنتي؟ مش بتقولوا العربية بتاعته عطلانة وفراملها سايبة يا بنتي، استهدي بالله وكلمي جوزك».

اجتمع النساء ليشكلن حلقه من الغرابيب السوداء، يجمعهن النحيب قربانًا لأهل الفقيد، فمنهن من أتت لتجامل، ومنهن من أتت لمواساة زوجة الفقيد، ومنهن من أتت لواجب العزاء لتلوذ بثوابه.

تدخل الحاجة طايعة أم حِمِيدة، تشجب وتبكي مفقودها وسط النساء.

«آه يا ولدي،

نابك الفقر يا ولدي يوم ما رجلك داست البيت.

يا ابني شفت الهم يا ولدي.

طالك الحزن والموت يا ابني.

شبابك غالي على التراب يا ابني».

في محاولة من النسوة لتهدئتها تقفز لمواجهة ذات من وسط النسوة.

«موتيه، موتيه وارتحتي يا قدم الشوم والفقر».

تنظر لها ذات مبتسمة بوجه من الصخر وعيون من الشيطان بتحدٍ، تتدخل بدور لتهدئة طايعة لتمسك يدها، وفي نفس اللحظة ينقطع التيار الكهربائي ليسكت صوت القرءان بالمذياع، ويعلو صوت همس الحريم بالمجلس، وتظهر انعكاسات هواتفهن المحمولة على وجوههن، وتعكس رؤوسًا من الظلال على الجدران بالمكان، يسكن صوت طايعة سوى صوت نحيبها، إلى أن يشق الظلام صوت صراخٍ عالٍ، يلجأ الجميع إلى إضاءة كشافات هواتفهم ليجدن ذات تقف في منتصف المجلس، وأمامها طايعة ببضع أقدام مرتفعة عن الأرض تحلق بالهواء لتصل إلى الجدار المقابل لها وترتطم به، فينفض المجلس من النساء فررن مما رأين، ليعود التيار الكهربائي نفس لحظة ارتطام طايعة بالأرض، ويعود صوت القرءان من جديد بالمكان.

«يا شمعون، أنا شفت بعيني يا شمعون، وكل النسوان شافت الست وهي طايرة في السقف، يا أخويا الولية خرجت مكسحة وشايلنها يا حاج، لا، لا، البيت في حاجة يا شمعون».

«ما لك يا بدور قلبك خفيف كده!»

«يا أخويا أنت اللي ما لك، فيك ايه! محسسني إني بحكي لك حكاية من حكايات ألف ليلة وليلة، بص يا حاج، جارتنا أم محمود قالت لي عندها شيخ اسمه الشيخ عارف، يجي يا أخويا يشوف البيت ويحصنه، هو أدرى اللهم احفظنا باللي بيحصل ده!»

انتفض شمعون ليعتدل في جلسته:

«انسي موضوع الشيوخ والدجالين ده يا بدور، وانسي اللي حصل في عزا حِميدة، حِميدة الله يرحمه مات في حادثة عربية، حادثة بشعة البلد كلها بتتكلم عليها لغاية وقتنا ده، جثته متلمتش كلها في تربة، وذات ملهاش يد في اللي حصل، لا اللي حصل له، ولا اللي حصل لطايعة أمه».

لم يقنع حديث شمعون بدور، ولم يستطع إيقاف عقلها عن التفكير فيما رأت، فما رأته رأته بأم عينيها لم تسمعه، لذا قررت الاستعانة بأم محمود لتمد لها يد العون وإحضار الشيخ عارف دون علم شمعون.

اعتادت تميمة الجلوس وحدها بغرفتها ليلًا، تستمع للأغاني متباهية بجمالها أمام المرآة، تجلس أمام مرآتها لتسدل خصلات شعرها الأحمر لتمشيطها.

«يا أحلى البنات يا تميمة، يا أحلى من ذات يا تميمة، يا ست البنات يا تميمة».

تشعر تميمة بحركة غريبة داخل بطنها، حركة دائرية تقف من

شدتها من على الكرسي أمام المرآة ممسكة بطنها بيديها لتتحسسها، تنظر مفزوعة أمامها بالمرآة لتجد انعكاس صورتها بالمرآة، لكن الحسنة التي تعلو خدها الأيسر انعكاسها الآن على خدها الأيمن، لتقترب أكثر وتتحسس وجهها ليتحول انعكاسها لذات أمامها بالمرآة مبتسمة تحمل طفل رضيع، تصرخ تميمة وتسقط مغشيًا عليها.

******

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، بسم الله الرحمن الرحيم، ربي أعوذ بك من همزات الشياطين، وأعوذ بك ربي أن يحضرون، اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن، وأعوذ بك من العجز والكسل، وأعوذ بك من الجبن والبخل، وأعوذ بك من غلبة الدين وقهر الرجال، وأعوذ بك من الفقر والعيلة، وأعوذ بك من كل بلية، اللهم إني أعوذ بك من الفقر إلا إليك، ومن الذل إلا لك، ومن الخوف إلا منك، وأعوذ بك أن أقول زورًا، أو أغشى فجورًا، أو أكون بك مغرورًا، وأعوذ بك من عضال الداء، وخيبة الرجاء، ومن شماتة الأعداء، وزوال النعمة، وفجأة النقمة، اللهم إني أعوذ بك من شر الخلق، وهم الرزق، وسوء الخلق، آمين، آمين يا أرحم الراحمين».

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»

« بسم الله الرحمن الرحيم»

«اللّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا

بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ».

«مَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفساً إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لا تُؤَاخِذْنَا إِنْ نَسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْراً كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلا تُحَمِّلْنَا مَا لا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنْتَ مَوْلانَا فَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ».

«صدق الله العظيم»

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ * مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ * وَمِنْ شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ * وَمِنْ شَرِّ النَّفَّاثَاتِ فِي الْعُقَدِ * وَمِنْ شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ».

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاس مَلِكِ النَّاسِ إِلَهِ النَّاسِ مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ».

«بسم الله الرحمن الرحيم»

«قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ اللَّهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ».

«صدق الله العظيم»

خرج الشيخ عارف من غرفة تميمة بعد أن أتم قراءة آيات القرءان داخل غرفة تميمة لتسكن وتهدأ، ليجد بدور تجلس في الصالة تبكي لما وصل له حال منزلها وأسرتها.

«ماتخفيش يا حاجة بدور، طول ما الإيمان جواكي محدش يقدر ياذيكي، بس أنت اتمسكي بميثاق ربنا جواكي، وكل شيء يسكن بإذنه».

«أنا خايفة على تميمة يا شيخ عارف».

«تميمة دلوقت بخير».

تجول الشيخ عارف بنظره داخل المنزل بهدوء إلى أن وصل بقدميه إلى غرفة شمعون، وأمسك بيده مقبض الباب وتركه مسرعًا.

«الأوضة دي بتاعة مين يا حاجة؟»

«أوضتي أنا وشمعون يا شيخ».

لحظة صمت وسكوت.

«أنا عاوز اشوف الحاج شمعون ضروري».

تلعثمت حروف بدور ونظرت إلى أم محمود لتستطرد أم محمود قائلة:

«أصل الحاج مسافر يا شيخ، إن شاء الله يرجع بالسلامة

ويجيلك».

هدأت بدور كأن أم محمود رمت لها طوق النجاة للخروج من المأزق.

ابتسم عارف:

«هو ممانع إني ادخل بيته وأنا عارف».

قطع حديثهم زيتون ليدخل عليهم من باب الشقة.

«ماما أستاذ حليم جه معايا عشان الدرس، وأول ما وصل وقف ومرديش يدخل من البوابة الحديد، وقال لي همشي ورايا مشوار ضروري وهاجي تاني».

«ماشي يا زيتون، تعالى سلم على الضيوف يا حبيبي».

مسح الشيخ عارف على رأس الصغير مسحة اقشعر لها بدنه ولكنه تمالك رد فعله.

«اسمك ايه يا حبيبي؟»

«اسمي زيتون».

لم يستطع الشيخ عارف حقن ما بداخله من مشاعر فبدا عليه الغضب، أو ربما غضب ممزوج بمشاعر الحزن والأسى.

«طيب يا زيتون يا حبيبي، ادخل ذاكر في أوضتك».

«حاضر يا ماما».

همس الشيخ عارف بصوت غير مسموع ليلقي سؤاله على بدور.

«ماقولتليش يا حاجة بدور، اخوات تميمة مين غير زيتون؟»

«زيتون ودهار وسنجاب وذات المحاسن».

«بسم الله، بسم الله».

لم ينطق الشيخ عارف كلمة أخرى غير إلقائه السلام على باب المنزل ورحل.

******

«على مهلك يا عربجي الغبرة، ما لك متصربع على ايه يا أخويا! هيفوتك الديوان، يوه!»

«حاضر يا ست فريال، الحنطور مش مصدق نفسه طاير الست فريال راكباه».

«حنطور غشيم زي صاحبه، جتك واكسة، قولي لي يا شلبية، الست أم حداية دي سرها باتع، ولا براني برضو زي مجايبك يا بت؟»

«أم غراب، أم غراب يا ست».

«ياختي غلطنا في البخاري، حداية ولا غراب، أهي كلها زي وشك، يوه ما تتعدل يا أخويا كسحتنا، بدل منسل مداسي على نفوخك».

«لا، لا، يا ست فريال، مجايبي المرة دي غير أي مرة، المرة دي

اعتبري الأدهم في فرشتك خلاص».

«ألا يا بت الأدهم لو جه، أنا مش هقول لك الحلاوة تبقى ازاي يا بت!»

«بس عند الناصية دي، يلا يا ست فريال انزلي، هاتي ايدك، اسندي على كتفي وأنت نازلة».

أتت اللحظة المنتظرة لسائق الحنطور ليسرق نظرة على أقدام فريال الزهار لحظة نزولها من الحنطور، ليتبع بنظره مؤخرتها متخيلًا فخذيها محدثًا الحصان أمامه عاضًا على شفتيه:

«شايف الفرسة يا ابن الكلب، خدامة سرير صحيح!»

نزلت فريال مستندة على شلبية ليدخلا إلى زقاق ضيق، بالكاد يتسع لهما، من حولهما بيوت أسلمت جدرانها روحها للأيام لتترك بها شروخًا عظيمة سكنتها خيوط العنكبوت.

«يا بت يا شلبية، أنا حاسة إن قلبي بيرقص في ضلوعي من الخوف يا بت».

«بركاتك يا طاهرة، بركاتك يا ست أم غراب».

دخان شديد يعتلي مجلسهما، ترى فريال كفها بالكاد، تلتصق بشلبية يجلسا على أريكة عتيقة من الخشب، في غرفة جدرانها سوداء، تنتشر بأركانها خيوط من العنكبوت نسجت خيوطها في المكان بأكمله، وكأنهما دخلا مقبرة للتو، يقبع كلب أسود ضخم مربوط في أحد أركان الغرفة، درجة حرارة الغرفة تكفي لغليان الجليد، تصببت فريال وشلبية عرقًا من الخوف والقلق، ومن شدة

التركيز في عيني الكلب.

«جايبانا فين يا بنت الملدوعة، ومين يا بت اللي فتح لنا الباب؟ أنا مش شايفة حد غيرنا!»

«الخدام يا ست، الخدام، أم غراب ليها خدام ماتشفيهومش، هي بس اللي تشوفهم».

فجأة ازداد الدخان من حولهما ليحجب الرؤية تمامًا، تسمعان صوت طرقات شديدة كصوت ارتطام الحديد ببعضه، وقفت فريال لتهم بالرحيل، مسكت طرف عباءتها شلبية، وإذ بقطرات ماء هبطت عليهما فجأة لتزيح ستار الدخان، يعلو صوت فريال: «بسم الله، بسم الله». يتبعها سكون بالغرفة لتظهر امرأة عجوز تجلس محل الكلب، ذات شعر أبيض طويل وحواجب مدلاة تصل لحدقة عينها، ترتدي جلبابًا أسودًا به نقش أقرب للطلاسم، تربط معصمها برباط أحمر ناري، ذات وجه أسود تملؤه التجاعيد، كأنها مرت من العمر أعوام نست احتسابها.

«اقعدي يا فريال يا بنت حليمة الحفافة».

ارتعدت أسنان فريال وشعرت بألم شديد، وكأن مطرقة تسحق عظام كتفيها، فلم تجد من القوة ما يسمح لها للفرار، فالذي جال بخلدها وزادها رعبًا من أم غراب كونها تعلم اسم أمها، فاشتهرت بمهنة الحفافة بظاهر الأمر، وقوادة تبيع النساء لمبتغين البغاء في الباطن، ولا يعلم سر أمها سواها.

سكتت شلبية، وفريال بالكاد استطاعت التقاط الأنفاس ما يسمح بدخول الهواء لرئتيها ليبقيها على قيد الحياة.

ظهر فجأة من أحد أركان الغرفة طفل لا يتعدى عامين، وكأن الجدران لفظته للتو، يحمل صينية بها كوب، يحملها بكفين مبتورتين، يحملهما بمعصميه، ليقف أمام شلبية وفريال مادًا إياها لفريال، لم تستطع فريال التحكم بسريان القشعريرة بجسدها كونها ترى طفل يحمل ما يحمله يمشي بهدوء وكأنه رجل.

«ادي لفريال الكوباية يا برقوق. مدي ايدك يا فريال واشربي، لازم تشربي عشان عقدة لسانك تتفك».

مدت فريال يدًا مرتعشة لتلتقط الكوب من الطفل، تقرب الكوب من شفتيها وترجعه مرة أخرى.

«اشربي يا فريال عشان ادلك على طريقك، اشربي».

علمت فريال أنه لا مجال للخديعة، فرفعتها عاليًا لتشرب ما بداخل الكوب مرة واحدة دون أن تعلم ما بداخله، شعرت بعدها بالهدوء وتقبل الأوضاع داخل المجلس.

ذهب برقوق من حيث ما أتى مرة أخرى داخل الجدار.

أخذت أم غراب شهيق عميق مغمضة عينيها، وكأنها سحبت ما تبقى من الهواء داخل المكان، فرجعت رأسها للخلف لترطمها بالجدار خلفها ثلاث مرات وتعود تفتح عينيها من جديد.

«الأدهم، الأدهم مرادك وطلبك يا بت حليمة، بس طلبك مش عندي، الأدهم مربوط».

بدأت فريال الانسياق في الحوار، وذلك بعد أن شعرت أنها ربما

اقتربت من مرادها.

«مربوط ازاي يا ستنا؟»

انزعجت أم غراب من سؤال فريال وقضبت حاجبيها.

«مايخصكيش».

«مايخصنيش ازاي!»

«مايخصكيش قولت».

«يوه! امال أنا جيت ليه؟»

«قلت لك مايخصكيش، طريقه مسدود ولو عاوزة طريقه يبقى طلبك مش عندي، طلبك عند شموع».

«شموع!»

تساءلت فريال عن شموع وهي تنظر لشلبية، وبدا الرعب بعيني شلبية.

«يا ست أم غراب، بلاش شموع انتي عارفة شموع سكتها سودا، وطريقها أخرته وحشة، اعملي لها حجاب أنت، ولا افتحي لها طريق ولا مندل، بس بلاش شموع».

وقفت أم غراب لتنفض تراب كثيف عن عباءتها ليصنع هالة حولها.

«أنا قلت اللي عندي، حلك مش عندي، حلك عند شموع، ونصيحة مني بلاش، وافتكري كلمتي إني قلت لك بلاش، جد الأدهم ياما

فتح كنوز وطلع من خير الأرض، بس بنجاسة الشيطان، ولسه نجاسة جده سارية في دمه، وخلي بالك يا فريال الدم النجس بيحن لدمه بس، بس مش كل النجاسة نجاسة شيطان.

واعلمي اللي هتطلبيه في يوم هتلاقيه، بس اللي مش هتريديه مش هتقدري تمنعيه، دلوقت أمرك بإيدك بكره مش بإيدك».

«بلاش يا ست فريال، سكة شموع أنت متعرفيهاش».

تنصرف فريال الزهار بعد أن استشعرت الحلم مقترب من أصابعها، وبعد أن حفرت كلمات أم غراب الأمل داخلها أن الأمل بيد شموع.

«ياختي هعرفها، هعرفها خلاص يا بت بقينا سوابق، هنشوف اكتر من اللي شوفناه عند أم غراب يعني».

«يا ستي، لا يا ستي، أم غراب كوم وشموع كوم تاني، مش عارفة أقول لك ايه، يا ستي بس شموع دي اللهم احفظنا واجعل كلامنا خفيف عليهم مش إنسية، دي من الناس اللي تحت يا ست، وبيقولوا برضو إنها بتتبدل كل شوية، وناس تانية بتقول إن خدامها من ملك الشياطين مش خدام عادين، وقالوا ديك النهار في نسوان بيروحوا لها لو عجبوها بتسكنهم وتتبدل بيهم، هي أصلها مغربي، والمغرب معروفين يا ست، أنت عارفة يا ست إن صيطها وسط الشيوخ والدجالين سنين وسنين، أنا اسمع عنها من وأنا صبية، وتشوفيها أصبا مني ومنك، أنت عارفة يا ست بدايتها كانت ايه!»

«قولي يا مفكوكة، أصل رايحة أطلب ايدها».

«بداية شغلها كان العمل السحر الميت».

«وايه كمان السحر الميت ده؟!»

«كانت تحضر الغسل بتاع الميت وتدس العمل مكتوب في حنك الميت وتقفل عليه ويدفن معاه، وعمر ما حد يعرف له طريق، والسحر الميت ده ملوش أخر متبت عليه لغاية ما صاحبه يموت».

«خفت يا بت، تعالي، تعالي خشي في عبي، عايزة كام يا بت وتخلصي لي القصه دي؟»

«يا ستي أنا أخدمك بنن عيني، أنا هدلك عليها بس مش هروح معاكي».

«رجلك قبل مني يا بت، فكرك يعني أنا هبقى عارفه دوايا فين واسيبه، انتي متعرفيش لساكي فريال الزهار، فريال الزهار اللي تشتهيه تقطفه».

بائت جميع محاولات شلبية بالفشل وخضعت أمام ضغط فريال، وربما أقنعتها سرة المال التي دفستها فريال بصدرها لتقودها إلى شموع.

تصل فريال الزهار وشلبية حيث تقطن شموع على أطراف البلاد، بمقربة من التقاء أرض زراعية بفرع من النيل، إلى أن تصلا إلى منزل صغير مبنية جدرانه من الخوص وسط أرض فضاء.

انبهرت فريال وشلبية بمجلس شموع فمن الخارج خوص لكنه

من الداخل منزل ضخم تتسم جدرانه بالاتساع، مفروشة أرضه بالسجاجيد، تعلوه قناديل ضخمه تضيء المكان، لتجداها تجلس في ركن رخيم على كرسي عالٍ منجدة مسانده بالقطيفة السوداء، ومن حولها شلت على الأرض حمراء اللون، شابة بكامل شبابها، خمرية اللون، شعرها أسود طويل يصل إلى أطراف مخدعها، جميلة الملامح، تحدد عينيها بالكحل، كحل لونه غير أسود كالعادة بل لونه يميل للزرقة، ترتدي رداء أحمر به خرز أسود.

تتحدث بصوتٍ قويٍ عالٍ غير ملائم لرقة مظهرها، صوت أتى من امرأة بعقدها الأخير من عمرها.

«مستنياكي يا فريال من سنين».

نظرت فريال إلى شلبية باستغراب مما سمعت للتو بأذنيها من ذلك الصوت الرخيم، وعلى أثر جملتها ارتعدت شلبية ممسكة بيد فريال تلك المرة والتي بدا الثبات عليها لمجرد شعورها أنه فات الكثير، وما بقي إلا القليل ليجمعها سرير مع الأدهم.

«شلبية، مش عاوزه تدوسي مطرحي يا شلبية، فكرك هتمنعي جلبي لفريال لعندي؟!»

بعد نزاع شديد ومحايلة من شلبية لأحبالها الصوتية، والتي خذلتها مرارًا من هول الموقف، أخيرًا نطقت:

«لا يا ست شموع، أنا اجيلك حافية، بس أنا مش مصدقة إني هقف قدامك في يوم».

«مكتوب لك من يوم ولادتك إنك تجيلي، واللي جابك شيطانك، وشيطانك أنا اللي زرعته جواكي».

أرهقهما ما سمعت آذانهما من شموع، لتخرا جالستين أمامها أرضًا.

بثبات تام أخرجت شموع خنجرًا مسنون من صدرها، خنجر صغير أسود مرصع بالكهرمان الأحمر تمسكه بيدها اليسرى، وغرسته في كفها الأيمن ليسيل دمها، دماء قاتمة أقرب للسواد، تشبثت شلبية في معصم فريال الساكنة تمام السكون، وتعيد الخنجر من حيث أخرجته، وتمسك خصلة من طرف شعرها لتضمد به جرح كفها جيدًا، وتمسك طرف الخصلة بأسنانها وتربطها جيدًا، ثم تقضم طرفه لينفصل من شعرها تمامًا ليشكل ضمادة على كفها.

«الأدهم عشان يكون لك لازم تبتري اللي منك».

«ابتر اللي مني! مش فاهمة!»

تهمس شلبية في أذن فريال بصوت غير مسموع:

«أبوس إيدك يا ست كفاية يلا نقوم نمشي!»

«مأذنتلكيش تمشي لسه يا شلبية».

صدمت شلبية من كون صوتها مسموع بالكاد لفريال الجالسة بجوارها، فكيف لشموع أن تسمعها إذن.

«خدامتك وخدامة خدامك يا ست شموع، حاضر، حاضر».

«الأدهم معمول له تحويطة من ملوك الشياطين، مهما كانو رفقات جده، عشان كده لو يلزمك الأدهم لازم تسمعي بودن الأطرش، أو تشوفي بعين كفيف، أو تمشي برجل مبتورة».

«يا ساتر يا رب، لا، لا، ما يلزمنيش ولا ريداه، ينكسح ويغور في أقرب خرارة، يوه! أطرش وكفيف ورجل مبتورة ليه، هو اللي سواه راجل سواه وحده مساواش غيره، لا، لا، لا، من بيت لبيت ومن نصابة لحرامية، لا ده أنا فريال برضو، يلا يا بت يا شلبية قومي، يا بت قومي».

انتفضت فريال وكأنها لدعت من عقرب للتو، وجذبت شلبية لتقوم شموع من مخدعها وتنظر لها بحدة، وتأمرهما بحركة من يدها لتهدئا، وكأن نزلت بهم السكينة فريال تقف على قدمها مستندة على كتف شلبية تحدق للفراغ من أمامها بعين زجاجية، تجلس شلبية جوارها بوجه شاحب متجمد، تتحرك شموع بهدوء تتحسس خطاها وتفك الضمادة على يدها اليسرى المتمثلة بخصلة شعرها الممزوج بدمائها، وتربطها حول رأس شلبية لتصبح غمامة على عينيها، وتضع يدها اليسرى على رأس شلبية متمتمة ببعض الكلمات غير المفهومة، منها جن وطارق وممزق الأوصال، خاطف الأرواح، مبدلين، مسرعين الأجل، الدم، الدم، كلمات متفرقة مفزعة أخرها قاطع الأرحام، خاطف الأبصار.

وفجأه انتفضت كلا المرأتين لتفزع شلبية من مجلسها وتجذب خصلات شعر شموع من فوق عينيه لتفتحهما تنسحبا سريعًا من مجلس شموع وهي تنظر بتحدٍ لهما.

«كل أتٍ أت، كل أتٍ أت، مستنياك يا شلبية، بس مش هتعرفي

طريقي لوحدك تاني، مستنياكي، مستنياكي».

******

انتفضت شلبية من نومها لتجد الظلام الكاحل من حولها، تتحسس جوارها فتسقط القلة القابعة على منضدة مصنوعة من الخوص، تنزل أرضًا محاولةً اللحاق بها قبل أن تفرغ من الماء، كل ذلك مر بها لحظات لتستوعب أن الليل ما زال مخيمًا على البيوت، تدعك عينيها بيديها وتجلس في فرشتها في محاولة منها الاعتياد على السواد المحيط بها، إلى أن سمعت بائع الخبز يتجول وأخذت أذنها تتجول خارج منزلها لتسمع أصوات اعتادت عليها كروتين صباحي، من صوت زمارة بائع غزل البنات والحلوى، صوت صراع الأولاد وهم ذاهبون إلى مدارسهم، تدقق النظر من حولها لكن حاستها خدعتها، ولم يصلها من حواسها سوى الأصوات من حولها.

صعقت وانتفضت من فرشتها لتتحسس خطاها في الظلام، إلى أن فتحت شباكها ليأتيها صوت من الخارج.

«صباح الخير يا ست شلبية».

صوت قادم من بائع الخضار القابع أسفل شباكها، صوت اعتادته لكن اليوم يصلها دون رؤية، لكن الرؤية الآن اتضحت داخلها فقد ذهب بصرها، أخذت شموع بصرها لتتذكر ما قالته بالأمس لها.

«كل أتٍ أت، كل أتٍ أت، مستنياك يا شلبية، بس مش هتعرفي طريقي لوحدك تاني، مستنياكي، مستنياكي».

خرجت مسرعة من منزلها متخبطة متحسسة جدران المنازل من حولها وهي تصرخ ليملأ صراخها المدى.

«أنا اتعميت، شلبية اتعمت، شموع خدت نضري، شموع خدت نضري».

ليلحقها الولاد من خلفها يلعبون ببراءة الأطفال.

«شلبية الكفيفة، شلبية الكفيفة».

تتجول هدية ليلًا داخل أرض علي الصالح لتفرغ ما بداخل الجركن الذي بيديها ليصل إلى أطراف الأرض، تشعل النيران بها وتقف بعيدًا لتشاهد النيران وهي تلتهم أرض علي الصالح وهي تبكي، فاليوم طهرت جوفها وجوف ابنها شمعون من مال الشيطان، كان أخر طريق سلكته لترد زوجها علي الصالح من طريق الشيطان، تشاهد الرجال وبينهم صالح يحاولون بذل كل ما أوتوا من قوة ليوقفوا النيران، لكن بعد فوات الأوان.

الآن أصبح علي الصالح كما ولدته أمه.

«يا حج علي، أنا لميت كل الهدمة وخلاص العربية بتنزل العفش، مش فاضل غير الأوضة دي يا أخويا».

يجلس الحاج علي الصالح أرضًا مفترشًا سجادة صلاة أمامه، وعلى فخذه ابنه شمعون غائص في النوم، تظهر معالم الإرهاق على كلاهما، هو وهدية.

«الخير في اللي ربنا كتبه هيكون، خلاص يا هدية أنا تعبت ونفسي ارتاح، الغمامة راحت من عيني خلاص يا هدية، ألف حمد

وشكر ليك يا رب، ألف حمد وشكر ليك يا رب، أنا هسيب الأوضة دي باللي فيها، مش عايزه، أنا بعت اللي فيها كله للمشتري، ربنا يبارك له حلاله، والفلوس كلها مش عايزها، اللي النار طالته كلته، واللي النار ماطالتوش مش لازمني، مش هخرج من هنا غير بالهدمة اللي علينا، وأنت يا بنت الأصول هتبدأي معايا من الأول تاني».

«أنا ابدأ معاك العمر كله من الأول وكأني ماعشتوش يا أخويا، نبدأ بالحلال أنا وأنت وشمعون، وربنا هيراضيك ما دام مشيت في سكته».

خرجت هدية من غرفة الصالح تتركه يتحسس رأس صغيره متمتمًا بآيات قرءانية بصوتٍ هادئ غير مسموع، رفع رأسه ليجد شموع تجلس أمامه على طرف النافذة، تضع قدمًا على قدم تهزها ذهابًا وإيابًا، وشعرها الأحمر مسدل خارج النافذة، تبتسم له بنظرة شيطانية.

«أنت اخترت يا صالح، بس اللي اخترته مش هتدوق حلاوته ولو بعد حين، اللي اخترته هيفضل شوكة تنغز في ضهرك، اللي اخترته مش هتعيشه، اللي اخترته هيبقى سبب موتك، أنا عشقتك ومش هعمل زي كل جنيات الجان واقتلك يا تحرقني، لا أنا هفارقك، بس نسلي مش هيفارق نسلك.

وعهدك معايا مش سهل تنساه وتكسره، لا، حق شموع مش هيروح، وحقي مش منك أنت بس، حقي منك ومن اللي منك، حقي منك ومن اللي منك، حقي منك ومن اللي منك».

«أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم، لا أذيكي ولا تأذيني».

تدخل هدية الغرفة على صالح بعد سماعها لصوته عاليًا مستعيذًا بالله، لتجده واقفًا بأحد أركان الغرفة ممسكًا بشمعون بيدي من حديد، تحاول فك قبضته عن الصغير قبل أن يدك عظامه بين يديه صارخه به.

«فوق يا علي، يا علي الواد هيفطس بايدك».

فجأة تنفك يدي علي الصالح لتلحق هدية صغيرها قبل سقوطه أرضًا يصرخ، وتجد وجهه ملطخًا بدماء تسيل من أذنيه ليقضيا معه أيامًا في المستشفى العام الخاص ببلدتهم، ليتعافى من حمى مجهولة السبب، وبعدها استقرت أمورهم خارج البلاد، في بلدة قريبة لهم يقطنون داخل منزل الحاجة سعدية، أخت هدية، امرأة كبيرة عجوز متوفي زوجها، ترك لها من المال والأرض ما يكفي لتأمينها مدى حياتها، وابنة شابة في مقتبل العمر طرحت ثمارها للتو، لم تكمل عقدها الثاني، فبدأ علي الصالح حياة جديدة في أرض الحاجة سعدية، والتي أدرت عليهم من خيراتها بعد أن طالها الذبول لافتقارها لساعد من سواعد الرجال.

تجلس تميمة أمام المرآة لتتحسس ملامحها بيدها لتجد من أمامها السراب، باتت تميمة أيامًا وليالي تبحث عن وجهها في كل مرآة في البيت، ولم تجد انعكاسها حتى بالكاميرا الخاصة بهاتفها وبهواتف كل من بالمنزل، دون جدوى أتمت اليوم العاشر دون أن ترى نفسها سوى في الصور الملتقطة لها سابقًا، فلم تجد مبرر مقنع لما يحدث لها في بادئ الأمر، أسندت ما يحدث للهلاوس

والمرض النفسي، ولكن بعد أن مرت بالتجربة مع من حولها أيضًا لم يروا انعكاسها، وكانت النتيجة الحتمية لما يحدث انه تدخل شيطاني كما قال لهم الشيخ عارف في إحدى زياراته الخفية لبدور، وبعد أن أخفق في إيجاد حل لما يحدث سوى أنه أسند ذلك إلى أفعال الشياطين التي تريد الحول بين تميمة ونفسها بسبب لا يعلمه سوى الله عز وجل.

«حاجة بدور، اللي حاصل وبيحصل وهيحصل في بيت شمعون مفيش شيخ يقدر يحله، البيت مش مسكون، البيت مسكون باللي فيه، وأنا مش هقدر أساعدك، أنا عندي ولاد عاوز أربيهم يا حاجة، وانتي مترضليش الأذية».

«تقصد ايه يا شيخ عارف إن البيت مسكون باللي فيه؟!»

«كل بيت وفيه عمار، عمار المكان، والعمار بيكون من جنس عمل صحاب البيت، ولو صحاب البيت مسلمين وأعمالهم خير، العمار بيكونوا مسلمين وموحدين ومسبحين باسم الله، بيضيفوا براح وراحة في البيت، ولو صحاب البيت...»

سكت الشيخ عارف وأظلم وجه وظل ينظر من حوله بالمنزل لتخرجه بدور من سكوته صارخة بوجهه:

«ها يا شيخ عارف، كمل صحاب البيت ما لهم؟»

«لو صحاب البيت نجسين يا بنتي حياتهم بتبقى نجاسة، وعمار البيت بيبقوا شياطين كفار، يقلبوا حياتهم ويقلوا رزقهم ولو رزقهم كان بحور ميتهنوش بيه ولا يدوقو حلاوته والنار تاكله وتاكلهم، واللي يبيع نفسه للشيطان النار أولى بيه وبولاده يا

بتي».

تجلس ذات المحاسن في ركن من أركان شقتها تبكي بحرقة، تشعر بنار تلتهم كل ما بها من مشاعر، تستشعر إحساس ندم وألم على فراق شديد لعزيز لها، إحساس بسكين يمزق أوصالها فجأة، لا تدري أي عزيز تبكي الآن، لكن يتملكها ذلك الإحساس.

للتو أتاها خبر موت ابنها بكته بحرقة بأسى ومشاعر أم فقدت مولودها، مرت عليها تلك اللحظات تنهش عقلها إلى أن دخلت عليها بدور لتتفاجأ بملبسها وجلستها.

تجلس محاسن أرضًا مرتدية عباءة سوداء، تربط رأسها بطرحة سوداء لتجمع بها شتات عقلها.

«ما لك يا بنتي، قاعدة كده ليه؟!»

«ابني يا أمي، ابني!»

«ابنك!»

«ابني مات يا أمي، لسه راجعة من دفنته».

صدمت بدور لما سمعت أذناها، وجلست أرضًا بجانب محاسن لتحتضنها وتمسح دموعها بكفيها: «ابنك مين يا حبيبتي، أنت معندكيش ولاد يا ضنايا».

«اخرسي خالص يا بدور، أنت مابتحبهوش طول عمرك، طول عمرك عاوزاه يموت، أنت السبب، أنت اللي قتلتي ابني».

«أبوس ايدك فوقي يا بنتي، أنا ماليش غيرك انتي واخواتك،

فوقي يا محاسن».

فجأة صمتت محاسن وجمدت عيناها، وكأنها تلتقط مشهد من أمامها ومدت يدها لتمسك رقبة بدور، وضيقت الخناق بها وتحشرج صوتها ليخرج من حنجرتها صوت أتٍ من حناجر عشرات الرجال.

«أنا هقتل ولدك يا بدور، هقتل ولدك يا بدور، لو شمعون مارجعليش، أنا هقتلكم كلكم».

أغشي على بدور وسقطت فاقدة الوعي لتفيق في غرفتها بين ذراعي شمعون.

«محاسن، محاسن فين يا شمعون؟»

«ماتكلميش يا بدور خالص دلوقت، لغاية ما نطمن عليكي».

«سيبك مني دلوقت، المهم محاسن بنتك، بنتك ملبوسة يا شمعون، واللي جواها قال لي لو مرجعتلوش هيقتلنا، هيقتل ولادك، أنا عاوزة اسيب البيت ده يا شمعون، أنا حاسة الولاد بتسقط واحد ورا التاني، السر عندك، السر عندك وأنت مستني، مستني ايه يا شمعون؟!»

«أنا تعبان يا بدور ونفسي ارتاح، نفسي ارتاح».

«أبوس إيدك، أبوس إيدك يا شمعون، ابعد عن سكة الرخام دي، وابعد عن رسال، رسال ده سمعته وحشة في البلد كلها، أنت فكرك أنا مش عارفة التجارة بتاعته، تجارته مش الرخام بس، وأنت أدرى مني بتجارته يا شمعون».

«هانت يا بدور، فات الكتير، وماتقلقيش يا ستي، أنا هحجز للولاد يسافروا يغيروا جو كلهم، واقعد أنا وأنت بقى نقضي يومين كأننا في شهر عسل».

«لا يا شمعون، أنا رجلي على رجل ولادي».

«خلاص ماتقلقيش، هيسبقونا وأنا اخلص حالي هنا في شوية حسابات، هخلصها مع التجار ونلحقهم أنا وأنت وزيتون وتميمة».

«طب اشمعني تميمة، ما هو تميمة ايش فارقها عن محاسن؟»

«لا، محاسن هند وصابرة هياخدوا بالهم منها، وأنا متأكد أول ما تشم هوا هتبقى زي الفل، وكلها يومين ونلحقهم».

«أنت حجزت فين يا حاج؟»

«الفيوم».

«الفيوم! دي أول مرة يا حاج نروح فيها الفيوم من أيام الحاج علي والحاجة هدية».

«الله يرحمهم، ده منتجع هناك فاتح جديد، الولاد هتتبسط هناك».

«ربنا كريم يا حاج، ربنا كريم».

******

«آه طبعًا، ما أنا الجاهلة اللي في البيت يا هند، اللي كلكوا عملنها مداس ليكوا».

«بصي يا صابرة، المشكلة مش جهلك، المشكلة غبائك، وبعيد عنك الغباء مصيبته أكبر، أنت عارفه يا صابرة، واحدة غيرك كان زمان تجارة الحاج كلها دايرة من بيتها وبيت جوزها، بس تقولي ايه بقى، غبية!»

«معلش يا بنت الأكابر، مالقتش اللي ينورني».

«طيب بصي، أنا هكسب فيكي ثواب، ويا بت احنا اللي براهم، هم في الأول والأخر ولاد شمعون ولحمه، احنا بقى لازم يبقى لينا ضهر، وبالأخص كل واحدة فينا، ماعرفتش تشيل لها حتة عيل منهم، وزي ما انتي شايفة كل يوم والتاني حالهم في النازل، وحماتك اتبلت بحال بناتها، اللهم احفظنا، والحاج شمعون ايده في الميه الباردة ولا فارق له حد».

«جن ايه ونيلة ايه، أنت بتاكلي من الكلام ده يا هند!»

«امال أكل من ايه، قولي بقى إنك مشوفتيش يوم العزا، ما انتي كنتي حاضرة وشايفة مع النسوان، دي البلد كلها ماورهاش سيرة غير اللي عملته البت محاسن في طايعة».

«ياختي اسكتي، كل ما بفتكر اليوم ده جتتي بتتلبش».

«يعني شوفتي وحضرتي، امال عاملة عبيطة ليه؟ ولعلمك بقى أنا قاعدة وقافلة عليا بابي بس وداني في البيت كله، أنا اعرف اللي مفيش حد يعرفه، طب انتي عارفة إن حماتك المصون بتجيب شيخ يقرالها على بناتها في الدرا».

«اتاري حماتك اليومين دول بتقفل بابها على بناتها كتير، وكل ما

انزل لها ألاقي بابها مقفول!»

«طبعًا، خايفة عليهم من الفضيحة، المهم الموضوع أكبر بكتير، أنا دخلت على النت وعملت سيرش ولقيت بلاوي، الموضوع كبير وطايل البيت كله من أول نسل شمعون، أنت فكرك أساميهم دي بالساهل، الموضوع لا يتحمله عقلك الغبي يا أخت صابرة».

«ياختي أنا مش فاهمة حاجة، نت ايه ونيلة ايه، فطميني واكسبي فيا ثواب».

«بصي يا ستي، الجن ليهم أسماء، ولما بتقولي أسمائهم كأنك بتندهي عليهم، ما بالك بقى لو سميتي عيالك على أسمائهم يبقى ايه الوضع، فاتحة بوئك برضو، ابسط لك الموضوع، بصي يا حلوفة».

«احفظي لسانك يا هند بدل ما اقوم افسخك نصين».

«ياختي ما تتحمقيش كده براحة، بس عمك شمعون مسمي ولاده ايه، وأولهم جوزي دهار، دهار ده اسم جن اسمه دهار ذات الأذرع.

وجوزك سنجاب، اسمه سنجاب بن البواب.

وزيتون ده اسم جن صغير كده بيحضر في الحمام على هيئة قطة سودا.

وذات وتميمة كلهم على اسم شياطين».

«يا نهار أسود، يا نهار أسود ومطين بطين».

«طول عمري ماكنتش فاهمة الأسماء الغريبة بتاعة البيت ده، من

أيام الجامعة وأنا كنت مبسوطة بدهار، وبقول الحاج ده دماغه متكلفة وذوقه غير الناس، طب أنت عمرك ما سمعتي حماتك وهي بتقول شمعون هو اللي مسمي العيال دي كلها؟»

«يا نهار أسود!»

«أسود على دماغك وطي صوتك، هتفضحينا اتصدمي بس اقفلي بوئك ده».

«أنا مش فاهمة، طب هو ليه يعمل كده؟!»

«بالظبط، هو ده اللي احنا لازم نعرفه، عشان نبقى فاهمين الدنيا اللي احنا فيها مع العيلة الوسخة دي».

«نعرف مين! تعرفي أنت لوحدك، أنا مش لازماني العيشة دي، أنا هطلع ألم هدومي واروح على أمي، أنا بقالي شهور في المدردك ده مشفتش يوم عدل».

«يا بت اهدي وماتبقيش غبية، أنا عشرة معاهم، وعارفة أولهم وأخرهم، ماتخفيش بس وخليكي معايا، عشان نفهم احنا داخلين على ايه، آه صحيح بجملت اللي حكتهولك، أقول لك على حاجة كمان، عارفة التليفون اللي مع حماكي اللي رايح جاي بيتكلم فيه، التليفون ده مفيهوش بطارية، وممكن تتأكدي بنفسك».

«ازاي مش فاهمة!»

«أنا جيت في يوم احط موبايلي على الشاحن لقيت موبايل حماكي على الترابيزة، مسكته قلت افتحه، لقيته حديدة في إيدي، لا بيصد ولا يرد ياختي ولا بيفتح، حطيته على الشاحن

ملقطش، مسكته في إيدي أقلب فيه، فتحته مالقتش بطارية، سبته على الترابيزة مكانه».

«وبعدين يا بت؟»

«كنت مركزة معاه، جه وقت الفطار واحنا قاعدين لقيته بيرن، أقسم بالله كان بيرن، وهو قام واخده ودخل أوضته يتكلم فيه، أنت ممكن تتأكدي بنفسك، دي سهلة، بس البيت ده ملعون باللي فيه».

ظلت صابرة متسمرة متجمدة الملامح بفيه مفتوح يحوم من حوله الذباب.

وظلت هند مستمتعة بمشاهدة صابرة وأثر وقوع الصدمة بها.

«طب هنعمل ايه دلوقت يا هند؟»

«ماتعمليش حاجة، خليكي ماشية ورا مني، واللي حكيتهولك ده مفيش جنس مخلوق يعرف بيه، ومتخطيش خطوة إلا لما تقوليها لي، وكمان أي حاجة تحصل من ورايا في البيت تقوليها لي، ماشي يا صابرة؟ اتفقنا؟ لغاية ما نشوف أخرتنا ايه».

«حاضر يا هند، حاضر».

«ماما، أستاذ حليم جايلي يديني الدرس، ممكن نطلع فوق في شقه محاسن؟»

«يا ابني المدارس خلصت، الدروس في الإجازة كمان، يا رب يا زيتون يا ابني اشوفك في أحسن المناصب يا رب، ماتخليكوا هنا

يا حبيبي عشان اعملكوا كوبايتين شاي عشان تركز».

«لا يا ماما، أنا هركز فوق أكتر».

«ماشي يا حبيبي، اللي يريحك».

صعد زيتون ومعه أستاذ حليم إلى الطابق الأعلى حيث شقة ذات بسطح المنزل، ليقفل زيتون باب الشقة ويرتمي بأحضان أستاذ حليم، لينتزع الأخير الملابس عن زيتون ويقبله ويضمه ويجلس ويضع زيتون على فخذيه لينهي حليم ما أتى لأجله.

******

«يا بت يا شلبية أنا مش فاهمة، يعني سيدك الأدهم هو اللي بعتك؟»

«أيوة يا ستي، هو اللي بعتني وقال لي إنه عايزك بالحلال يا ستي، واداني العنوان اللي في الورقه دي عشان اوديكي عليه».

«طب ما هو عارف مطرحي، مجاليش ليه طوالي يا بت؟»

«يوة يا ستي! عاوزة تاكلي عليا الحلاوة شكلك».

«حلاوة، حلاوة ايه يا بت، ده أنا هأكلك شهد مش حلاوة، بس انول المراد».

«هتنوليه يا ستي، بس أنت خليكي معايا وامشي ورايا».

«امشي وراكي، عمشة تكحل مجنونة، هو أنت شايفة كف ايدك عشان امشي وراكي، بس عارفة يا بت أنا متهيألي اللي صابك ده

من يوم ما كنا عند اللي اسمها شموع دي».

«خلاص يا ستي، والنبي ما تجيبي سيرتها، اللي حصل لي ربنا اللي كتبه، المهم دلوقت في الفجر هجيلك ونروح على العنوان، عشان ننول المراد ويرتاح البال يا ست الستات».

«بس برضو يا بت مش خايلة عليا حكاية إنه بعتك دي، يا بت مش عارفة الفار بيلعب في عبي».

«لا يا ستي طمني الفار اللي في عبك، وقولي له عبك مش مطرحه ولا مكانه، الأدهم يا ستي عاوزك ورايدك بالحلال، عشان كده مش عاوز يجيلك مطرحك، هو قال لي يا ست يجيلك مطرحك لو هيجيلك زبون».

«موزون كلامه برضه يا بت، خلاص يبقى على معادنا في الفجر مستنياكي».

تترك شلبية فريال الزهار تغوص في الأحلام، تحلم بتلك اللحظة التي تجمعها مع الأدهم.

تركب شلبية الحنطور المنتظر أمام منزل فريال، أخذ العربجي بيدها لتستقر به لتعود لمنزلها، تسرح في خيالها في طريق العودة لأخر مجلس جمعها بشموع بعد أن فقدت بصرها، وكان العهد بينهما أن تسلمها فريال فيعود نظرها في التو والحال.

وصلت فريال للتو بصحبة شلبية للعنوان المذكور، حيث يقطن الأدهم ليظهر لهما منزل ضخم مرتفع الطوابق.

تدخل فريال ممسكة بيد شلبية لتمرا من البوابة الحديدية

للمنزل، تجد فريال المنزل من الداخل وكأنه تحت الإنشاء، وكأن جدرانه متهدمة بالكلية، تجد في أخر البهو طاولة ملتف من حولها مجموعة من الرجال، تتوسطهم امرأة، لم تسمح لها الإضاءة الخافتة التحقق من ملامحهم، إلى أن اقتربت وسمعت صدى قدميها يضرب دقات في قلبها.

«أنت جايباني فين يا شلبية يا بت الكلاب؟»

التفتت لتهم بالرحيل وذلك قبل أن تشعر بارتطام شديد بمؤخرة رأسها، لتسقط أرضًا على إثرها مغشيًا عليها، لتستفيق مرة أخرى وتشعر بيديها مكبلتين في كرسي مكممة الأنفاس لتحيل الكمامة عن بوح صوتها، لا ترى من حولها معصوبة عينيها، لا تجرؤ على استخدام أي من حواسها سوى أذنيها، تركز السمع في الأصوات من حولها ليأتيها صوت ارتعشت له خلجاتها.

«وعدتي وصدقتي يا شلبية، ودلوقت يا رجالة الروح حضرت بحضور فريال».

«بس يا ست شموع ده خطف، احنا ماتفقناش على كده».

«بص يا راجي، أنت أصغر إخواتك يا ضنايا، مش عوزاهم يحزنوا على شبابك، وأنا قولت وانتوا اختارتوا، روح طارش هي اللي هطلع الكنز المدفون، وطارش عشان يحضر لازمه غدر وروح نجسة عشان يحضر فيها، والغدر وجب وشلبيه غدرت بفريال، ومفيش أنجس منها بنت الليل دي».

الإضاءة معتمة، لا يظهر من وجوه الجالسين سوى بعض الخيالات المنعكسة من النور المنبعث من اللمبة الجاز القابعة

أوسط المجلس يلتف من حولها كل أولاد عتمان الأربعة، راجي ورابح وعلوان وريحان، وتتوسط المجلس فريال المقيدة، وبجوارها كلٌ من شلبية وشموع، ومن أمامها مجموعة من الأوراق وصفحات منزوعة من وسط المصحف الكريم ومبخرة صغيرة.

تزمر الأخ الأكبر علوان من أخيه راجي المعترض دومًا على أفعال إخوته من دجل وشعوذة، إلى أن وصل بهم الحال للحفر بمنزل أباهم المتوفي ليخرجوا الكنز.

«اخرس يا راجي خلينا نخلص ونطلع اللي تحت البيت، مش فارق إذا كانت مخطوفة ولا برضاها، الشيخة شموع مخطفتهاش من الحِج، يلا يا شيخة شموع ابدأي خلينا ننهي اللي بدأناه».

ترفع شموع يديها لأعلى ليصمت الحضور جميعًا، غير فريال فلا زالت تحاول فك معصميها المقيدين بالكرسي، تخبط بقدميها الأرض إلى أن بدأت شموع في تعزيمتها ممسكة بصفحات القرءان من أمامها لتصنع منها قراطيس صغيرة وتتمتم بصوتٍ عالٍ يرتفع تدريجيًا.

«بحق اللؤلؤ والمرجان، بتسخير ملوك الجان، بحق الملك الموكل بكنوز الأرض ودفائنها، بحق النار».

وأحضرت طائر من قفص أسفل المنضدة لتمسكه بيدها وتفصل رأسه عن باقي جسده وهي تتمتم: «باسم طارش، باسم طارش»، في مقابلها فريال تتلطخ بدمائه وتتناثر على القراطيس من أمامها وتصل للجالسين، فمنهم من لا يستطع الحراك خشوعًا

للموقف، ومنهم من رجع للخلف لتفادي الدماء.

بدأت شموع في تحضير ملك الجان، وشعرت بكون المجلس مهيأ الآن لتستحضر حاجتها من باقي الجن الذين سيخدمونها في أعمالـها الشـيطانية ليصبحوا خـدامها فـي حـين الحاجـة لـهم، فوجدت جسد فريال خصب لاستحضار باقي الجن.

«بحـق ثبـر الـرجيم، وجنده وأبنائه، بحق داسم الرجيم وجنده وأبنائه، بحق الأعور، بحق مسوط، بحق زلنبور، احضروا، احضروا في جسم فريال مسرعين، مسرعين، مقبلين، مقبلين، النار، النار».

هدأت حركة فريال تمامًا إلى أن ظن الجميع أن السحر فسد وقد زهقت روحها، إلى أن حدثت الصدمة الكبرى.

وقفت القراطيس من أمام شموع على المنضدة وارتفعت في الجـو واشـتعلت بـها نـيران فـي لحظـة، وانطفـأت كـل النـيران وانطفأت اللمبة، دامت لحظات سكون بالظلام وفجأة اشتعلت اللمبة من جديد بنار عالية، وتملكت فريال قوة بمثابة قوة عشرة رجال، فلم تنجح شموع بتحضير روح واحدة لإخراج الكنز، بل استحضرت منهم العديد.

وقفت في لحظة بعد أن أحرقت قيودها بنار منبعثة من جسدها، ووقفت لتطيح بهم جميعًا، تضرب بعضهم بيد من حديد، وتمسك رقبة شموع بيد أخرى، وفصلت رأس شلبية بالسكين أمامها، إلى أن أزهقت أرواحهم جميعًا، بعد أن قطعت أوصالهم ورحلت قبل أن يدك المنزل عليهم أجمعين.

******

«بص يا دهار، مراتك مالهاش عيش في وسطينا، وبكفاية بقى اللي عملته معانا واللي حكته لصابرة مرات أخوك، كله جه في حجري، وبنات الحاج شمعون مش لبانة في حنك النسوان في قعدة سمر».

«يا أمي، يا أمي وأنت اتأكدتي من الكلام ده، ماتسمعيش لصابرة، صابرة طول عمرها بتغير من هند».

«هو ده ردك، هقولك ايه، ما أنت دلدول ومطاتي طول عمرك، وأنا اللي فاكراك إنك لما تسمع الكلام ده على اخواتك هتقوم تشقها نصين يا دهار، وهند من يوم ما رجلها عتبت باب بيتي وهي بترمي ودانها على كل باب، مش عارفة غرضها يا ابني بس أكيد غرضها سو».

«لا يا أمي، أنت عارفة أنا ما اقبلش الهوا على محاسن وتميمة بس...»

«من غير بس، خلي اليومين اللي باقين لك أنت ومراتك يعدو بخير، وإلا قسمًا عظمًا وحياة اللي خلقك كل كلمة وكل حرف اتقال على اخواتك هقوله للحاج شمعون، وأنت عارف أبوك بيحب هند قد ايه وما هيصدق أسلمه رقبتها».

«أنت ايه يرضيكي يا أمي ويريحك وأنا هنفذه بالحرف، بس بلاش أبويا».

«أنت ومراتك حدودكوا باب شقتكوا لغاية ما تغوروا من البيت، احنا مش ناقصين نصايب يا ابني».

دودة الكتب حرامية

لحظة سكون مرت بهما، لحظات جلس بها دهار منكس الرأس أمام بدور يجول برأسه ما سمعه للتو منها، في صراع مما سمع من أمه وما يستوجب منه ردة فعل مع هند، كلها أفكار تهتك جـدران عقلـه بمطرقـة لتـأتي بـدور بسـؤال يخرجـه مـن دايـرة تفكيره.

«ها، هتحلها أنت ولا احلها بطرقتي أنا؟»

«خـلاص يا أمي، حاضر، أنا هريحك وهعمل لك كل اللي انتي عاوزاه».

اعتـدلت بـدور بجلسـتها بعـد أن أفـرغت مـا بـداخلها مـن سهام موجهة لابنها دهار، وبعد أن استشعرت بداخله قلة حيلته تجاه هند.

«أهلًا، أهلًا يا دهار يا ابني، ازيك؟»

دخل عليهما شمعون ليقطع حديثهما لتكمل بدور من جديد:

«أهلًا يا حاج، اتفضل يا أخويا لما أقوم أجهز لك لقمة تاكلها».

«لا يـا بـدور تسـلم إيـدك، أنا مش جعان، ما لك يا واد يا دهار، شكلك ولا كأنك عامل عملة!»

نظـر دهـار بعيني بـدور محـاولًا اسـتكشاف ما يـدور بعقلها هل سـتبوح بالسـر أم اكتفت بتكديره فقط ورضت بحكمه وانتهى الأمر.

سرعان ما طمأنته بدور قائلة:

دودة الكتب حرامية

«لا يا حاج ماتقلقش، البيه عاوز فلوس عشان تكاليف السفر بتاعته هو وبنت الأكابر».

ضحك شمعون ومد يده في جيب بنطاله ليخرج ما به من أموال ويدسها في كف دهار:

«خدهم ببركتهم كده متعدش، ولو احتجت تاني قل لي ما تشلش هم».

«ربنا يخليك لينا يا حاج، أنت الخير والبركة».

انسحب دهار من المجلس بعد أن ترك قبلة على جبين أمه، وكأنها قبلة شكر وعرفان.

تحولت بدور بعد أن تركهما دهار لتحول دفة الحديث في اتجاه آخر:

«يا شمعون بناتك بتضيع يا شمعون، وابنك، ابنك زيتون حاله متشقلب، البيت كله خراب».

«بس، بس، ما لك يا بدور وخداني على الحامي ليه!»

«أنت مش دريان ولا مش شايف، ولا مش عاوز تشوف يا أخويا، بناتك الاتنين كأنهم ملبوسين، ودول بنات وعرض وسمعة، وماتنساش إن البيت فيه حية، ودبة النملة في بيت شمعون بتنقلها بره بنت الأكابر».

«أنا بناتي سمعتهم زي الفل يا بدور، ما لك في ايه، هو شوية تعب يعملوا فيكي كده، أنت اتجنيتي! أنا وأنت عارفين اللي فيهم،

واحدة بتسوق العوج علينا عشان ضبع الكلب بتلوي دراعنا يعني، والتانية لسه جوزها ميت ومدفون، مش عاوزاها تحزن عليه.

تعالي لي هنا، يبقى موضوع الفلوس بتاع الواد دهار ده مش مظبوط، صح؟ أنت كنتي واخدة الواد على الحامي».

ابتسمت بدور من طرف فمها.

«ما أنت عارف يا حاج، أنا ما بخبيش عليك حاجة يا أخويا».

«بس مش عاوزك يا بدور تدوسي على الواد دهار، أنت عارفة البت عفية عليه وهو غلبان».

«نفسي يسترجل يا شمعون، نفسي يسترجل ويبقى له كلمة وسر في بيته، لكن ده يا أخويا النفس بيقول لها عليه.

غلبت معاه أقول له خلي لك سر يا ضنايا، وإن حبيت واري وإن كرهت داري، ولسه مفيش بنكوا عشرة عشان تبقوا كتاب مفتوح، أبدًا ودن من طين وودن من عجين.

ما تاخدنيش في دوكة، المهم مش ده اللي في بناتك يا شمعون، ولا ده السبب ولا مربط الفرس، وأنت عارف».

«امال ايه مربط الفرس؟»

«تميمة بنتك عقلها راح، طول اليوم قاعدة بتلف على مرايات البيت، ومحاسن الحزن بياكل فيها زي النار، وكل يوم وليلة بحال، كل شوية تبكي على فراق حد مش موجود، شوية تقول لك ابني ضنايا، وشوية تقول لك أبويا مات».

«ما أنا عشان كده حجزت لكم مصيف، عشان يغيروا جو».

«بقول لك البنات والواد بيضيعوا مني، تقول لي مصيف!»

«الواد، ما له الواد يا بدور؟»

«الواد بيروح المدرسة، ورايح جاي ودروس، وفي الأخر جاي لي إنذار فصل النهارده، بس لما يجيلي».

«يا بدور براحة يا بدور، أنا شايف إن المشكلة عندك أنت يا حاجة مش في العيال».

«أنا! أنا دلوقت المشكلة فيا يا حاج، بعد العشرة والسنين دي عاوز تقول إن أنا اللي ضيعت ولادي يا شمعون، أنا اللي ضيعتهم مش أنت بأعمالك، أنا طول عمري حاطة في بطني وساكتة، بس خلاص، اللي يمس ولادي أكله بسناني يا شمعون، ولو حد مقصر يبقى أنت».

«أنت بتكلميني كده ازاي يا بدور، أنت اظاهر خوفك وقلقك على ولادك جننك».

«اديك قلت يا حاج، ولادي، وده مربط الفرس يا حاج».

«من امتى ولادي وولادك يا بدور! مش بقول لك اتجننتي!»

«لا يا حاج، لو حد اتجنن يبقى أنت مش أنا، ولعلمك أنا مش منقولة من البيت ده إلا لما تشوف حل في الولاد».

«لا أنت العيشة معاكي بقت تقصر العمر، أنا همشي اغور من وشك».

«امشي روح للي جاي من عندها، يمكن تلاقي دواك».

رحل شمعون ليترك بدور تجلس بمقاربة من نافذة المنزل تنظر له من خلف الستار لتراه وهو يستقل عربته ويختفي بالطرقات بعيدًا.

يستقل شمعون عربته إلى أن وصل إلى المقابر حيث دفن أباه وأمه، وكانت تلك المرة الأولى التي يزور بها المقابر، لينزل من سيارته ويقف أمام البوابة الحديدية المحفور بها (مدافن الحاج علي الصالح).

لم يستطع شمعون الدخول لمدفن والديه، بل ظل متسمرًا خارج المقابر يبكي بحرقة، وكأنهما للتو دُفنا بالتراب ولم تجف دمائهما بأوردتهما بعد، أخذ يبكي ويبكي كالطفل، وجلس أرضًا أمام البوابة وأخذ يحدث حاله: «سامحني يابا، سامحيني ياما، أنا محتاج لحضنك ياما».

بكى دموعًا أنهارًا، يسترجع كل ما مر به من عمر، يسترجع كل لحظة أسقته فيها هدية من حنانها ليسقيها هو من ماء البراد المسموم، يسترجع جلوسه في جلباب علي الصالح بين قدميه وهو يطعمه مما أتاه من رزق من أرض الحاجة سعدية ليسقيه أيضًا من نفس البراد.

استقل عربته من جديد وبطريق العودة تعطلت به، نزل وفتح الكابوت محاولًا استكشاف ما بها دون الوصول لسبب قاطع للعطل، وبعد أن فقد الأمل أعاد إغلاقه من جديد، ليجد امرأة سمراء ذات شعر أسود طويل مربوط للخلف لينسدل على كتفيها،

أذنها طويلة أقرب لآذان الخيول، وعين واسعة كعيون البقر، من أمامه تجلس بالعربة بجوارة يتنهد ويركب بجوارها.

«ازيك يا شمعون؟ أنا لقيتك كده عايش في جو الصعبنيات، وسامحني يابا وسامحيني ياما،

قلت اطمن، ما لك جرى لك ايه؟ يكونش شوية الهبل اللي قالتهولك الولية اللي في البيت ده أثر فيك!»

«ايه اللي جابك يا خضوب؟»

«ايه اللي جابك! ده بدل ما تقول لي ايه الغيبة الطويلة دي يا حجوج؟»

«ايه اللي جابك يا خضوب؟»

«اطلع بس اطلع، الدنيا هنا مقطوعة أنت مش خايف تتلبس ولا حاجة».

«اتلبس! وأنت معايا يا خضوب، دي تبقى عيبة في حقك حتى!»

«طيب اهدى كده وخلينا نشوف اللي ورانا بقى، هنعمل ايه؟»

«بصي يا خضوب، أنا ولادي بتضيع من إيدي!»

«مش بقول لك كلام الولية الخرفانة أثر فيك».

انتزع شمعون المفتاح من العربة والتفت لها ليكمل حديثه بغضب، تمثل في نبرة صوته والتي خرجت عن المألوف لمسامع خضوب:

«اشمعنى أنا؟»

«اشمعنى أنت! قول اشمعنى أنت اللي محظوظ من دون الناس، كل حاجة تحت رجليك، جاي دلوقت تقولي اشمعنى أنا، أنت جالك الفلوس والمال والجاه والتجارة تحت رجليك، جاي تقول لي اشمعنى أنا، عشان كلمتين سمعتهم من الولية المجنونة دي!»

«لا يا خضوب، مش مجنونة، أنت اللي مجنونة وعاوزة تجننيني، أنا مش عاوز لا مال ولا كنز ولا جاه، أنا عاوز عيالي».

«يـيـييي! نفـس الاسـطوانة المشـروخة بتـاعتكوا كلكـوا، تبقـوا هتموتوا وتحضرونا، ولما تحضرونا نجبلكوا الدنيا تحت رجليكوا، وأول ما تشبعوا تقولوا علينا كده، إننا بنجننكوا، ما يصحش يا حجوج، ما يصحش».

«الأسطوانة بتاعتنا! بتاعة مين؟»

«بتاعت الإنس يا حجوج، أنت عارف، ده نفس الكلام اللي علي الصالح قال له لأمنا شموع برضو».

«شموع مين؟ أنا مش فاهم حاجة!»

«بص بقى يا شمعون، عشان أنا خلقي بدأ يضيق منك، أخرنا مع بعض الاتفاق اللي بنا والكنز، الكنز يطلع، ومن قبله ابنك يجيب الزيبق من المغرب، وكل واحد مننا من طريق».

«اشـمعنى الكـنز تحـت بـيتي أنـا؟ وليـه ابني اللـي يجـيب لـك الزيبق؟»

«ما أنا سبق وقلت لك يا حجوج، أنت بتنسى ولا ايه، الزيبق ما ينفعش يجيبو غير إنسي، وابنك عشان منك ومن نسل صالح، والكنز ده يخصني، وأقول لك حاجة، الكنز مش فلوس ولا دهب ولا مرجان، الكنز ده اللي هيحرر أمنا شموع، والحاج علي صالح ناكر للجميل زيك وزي كل الإنس، بعد ما خد المال والأرض، عمل تعويذة ودفنها تحت البيت، عشان يقيد أمنا شموع وما تضرش نسله كله، ومش هتطلع إلا بإذن ملك الجان مسخر الكنوز طارش، عشان يحرر أمنا وطارش لازمه الزيبق، والزيبق يجيبه ابنك عشان أمنا تتحرر، عشان الأذى يبعد عن بيتك ونسلك، والفرخة ولا البيضة، والبيضة ولا الفرخة، متهيألي كده خلاص فهمت وكل حاجة وضحت».

«لا، أنا مش هنفذ اللعبة دي».

«لا يا حجوج، أنت مش بتنفذ، أنت بتكمل، وبتكمل اللعبة اللي أبوك بدأها، أنا مش فاهمة بصراحة انتوا عاوزين ايه، الإنس دول جنس نمرود، والله ويقولوا لك إننا معجونين بمية عفاريت، امال انتوا تبقوا ايه! انتوا الخيانة في دمكوا، انتوا فاكرينا لعبة زهقانين تحضرونا مش لازمنكوا تحرقونا، احنا بنجبلكوا ونسخر لكوا خير الأرض وما فيها وانتوا تتمرمغوا في خيرنا، وفي الأخر لما تشبعوا تحرقونا، تصدقوا انتوا اللي تستاهلوا الحرق مش احنا، وبعدين تعالى هنا، أنت من غيري ماكنتش تقدر تمشي خطوة، أنا عينك اللي بتشوف بيها، أنا ودنك اللي بتسمع بيها، أنا لسانك اللي بينطق يا شمعون، ويا ناكر الجميل كفاية إنك وأنت جمبي دلوقت عينك بتلف في كل ركن من أركان بيتك».

وصل شمعون للمنزل ليسمع صرخات آتية للخارج، صراخ مدوي لجميع نساء المنزل، يجري شمعون مسرعًا بخطوات مترددة احتسابًا منه للمفاجأة الآتية من خضوب بعد أن فشل في كل سبل إقناعها أن تسحب ذيولها من منزله وأن تتركه ينعم بحياة هادئة مع أولاده.

«الحقني يا شمعون، ابنك مش لاقينه، ابنك ضناك ضاع، ابنك ضاع يا شمعون، دي أخرتها يا شمعون».

تجلس تميمة بركن من أركان الصالة منكمشة بنفسها مرتعدة تبكي بحرقة ممسكة برأسها، تقف بجانبها صابرة محاولة تهدئتها ملقية عليها من حين لآخر كلمات من نوع: «استهدي بالله، حبيبتي هنلاقيه، ماتقلقيش». وبالركن الآخر تجلس ذات المحاسن ممسكة كوب من الشاي وترتشف منه بهدوء لتتابع المشهد الدرامي من حولها، وكأنها تتابع حلقة من حلقات مسلسل تلفزيوني رتيب ممل، دون المشاركة بأدنى مشاعر، ويقف سنجاب بجانب أمه، واختفى عن المشهد هند ودهار بعد أن طردتهما بدور.

«قل لي يا سنجاب يا ابني، مش فاهم حاجة من أمك، أخوك فين؟»

«ما رجعش، جه معاد رجوعه من المدرسة ما رجعش، وأصلًا لسه جاي له إنذار بالفصل النهارده، وماما كانت مستنياه يرجع عشان تحاسبه، أنا بقول لها يمكن عرف من حد من زمايله إنهم بعتوا الإنذار ده فخاف وراح استخبى عند حد».

«يا بدور، يا بدور طب مسألتوش المدرس اللي بيجيله ده يدي له الدرس؟»

نظر سنجاب لأمه في حيرة وسكون، إلى أن نطقت بدور:

«ما هي دي المصيبة، المدرس ماطلعش في المدرسة يا أخويا، بيقولوا جه يوم واحد ومشي، جه يوم ومشي».

«أنا حاولت يا حاج اسأل على عنوانه أو بطاقته، المديرة قالت لي أستاذ حليم جه يوم واحد ومشي، وماكنش مستوفي أوراقه أصلًا ولا نعرف له طريق، وسألت كل زمايل زيتون عن أستاذ حليم ده محدش يعرف عنه حاجة ولا فاكرينه أصلًا».

«استقرت كلمات سنجاب في رأس شمعون ليشعر بدوار الأرض من حوله، متذكرًا ما قالته له خضوب في يوم من الأيام عن رسال، وأن من المحيطين به هم خدام من الجان، وليس بأنسين وأنه لم ولن يستطع تفرقتهم، فلاحت بذهنه فكرة أن أستاذ حليم ربما يكون من خدام الجن، وقد أتى لاستقطاب ابنه، وربما كل تلك الأفكار ليس لها أساس من الصحة، وأن الأمر وما فيه أن زيتون علم بأمر الإنذار ولذا اختفى عند أحد أصدقائه.

«أنا عاوزة ابني يا شمعون، هات لي ابني أبوس إيدك، أبوس إيدك».

دامت أيام وليالٍ على بيت شمعون، قضاها كل من في البيت بحثًا عن زيتون، لم يترك دهار وسنجاب بيتًا ولم يدخلاه بحثًا عنه، وشمعون قضى لياليه بحثًا في المقابر، ربما عثر على ابنه، وربما ظهرت له خضوب، فكم تمنى أن تظهر له ليقدم لها قرابين

الولاء والطاعة لتدله على طريقه.

نهشت الأفكار عقله، وجفت أوراقه وذبل عوده، ولم تظهر بعد له، كان يعلم في قرارة نفسه أنه المذنب الأول والأخير، وأنه بحديثهما قد جنى على ابنه بيده، فكان عقابها أشد له وتركته لأفكاره تنهش عظام جمجمته دون حل أو مفر.

قضى دهار أيامه بحثًا عن أستاذ حليم، فربما وجد عنده رد لتساؤلاتهم عن اختفاء زيتون، وخرج سنجاب وصابرة يبحثان عنه حيث تقطن النساء في منازلهن فالمنزل الذي يوجد به نساء دون رجال تدخل صابرة تبحث عنه.

لم تذق جفون بدور طعم النوم سوى ساعات وربما لحظات، لتستيقظ فزعة تبكي على ابنها، وتعود مرة أخرى تغوص بنوم شديد مرة أخرى، وتعود لتستيقظ لكن تلك المرة أفاقت على صوت ارتطام شديد، كارتطام الأواني بالمطبخ، لتقوم من مخدعها تخرج من غرفتها للصالة لتجد ذات ابنتها تقف على طاولة الطعام تقطع بالسكين الضخم من لحمٍ أمامها وتضع في إناء مجاور لها.

«صباح الخير يا بنتي!»

«صباح الخير يا أمي، عاملة ايه دلوقت؟»

«هو الجزار جاب لحمة الشهر؟»

«آه يا أمي، دخلت عليكي لقيتك نايمة ما ردتش اصحيكي، احنا ما صدقنا إنك نمتي عشان تقدري تصلبي عودك يا أمي».

«عودي! عودي انكسر، عودي انكسر بيكوا يا بنتي، واخوكي كمل على اللي باقي لي».

«إن شاء الله هنلاقيه يا أمي، إن شاء الله هنلاقيه».

«أنا راضية بقضاء ربنا، بس اعرف إنه أخد وديعته».

وقفت محاسن تجر قدمها إلى أن وصلت لبدور، واحتضنتها بقوه وأخرجت كرسي من باطن الطاولة لتجلسها جوارها.

«اهدي يا أمي واستعيذي بالله، والله هنلاقيه، اطمني يا أمي، ربنا عادل وما بيظلمش هو يعني ربنا اسمه العدل عشان يجبنا في ملكوته ويظلمنا».

«ونعمة بالله، ونعمة بالله، بس امتحان صعب قوي يا بنتي، صعب!»

«صعب وهيعدي، وهتشوفي يا أمي، وصبرك ده حسنات وبيت في الجنة».

«أختك لسه نايمة؟»

«حبيبتي طول الليل بتصلي وتدعي ربنا يفك الكرب، لغاية ما صلت الفجر ونامت».

«ربنا يقبل دعاها يا رب، ويفك كرب كل سائل من أمة محمد».

«عليه أفضل الصلاة والسلام، آمين يا حبيبتي، آمين».

«اللحمة دي كتير قوي، يعني كده الجزار قال لك دول كام كيلو؟»

«ما قالش والله، هو كل اللي قاله دي لحمة الحاج شمعون، أخدتها منه وقال لي الحساب مع الحاج».

«مش حسيني الجزار اللي بعته برضو؟!»

«لا يا أمي، باينه جزار تاني أبويا اتعامل معاه، مش أنت أخر مرة قولتي للحاج الجزار سايق العوج ولحمته كلها دهن وعضم، أنت نسيتي يا ست الكل باين».

«أنا يا بنتي اللي فيا يكفي ويفيض، أنا عقلي مش فيه».

«طيب أنا هقوم أعمل لك لقمة تشوقي ريقك بيها، وكوباية شاي تعدل لك راسك لغاية ما أجهز الغدا».

«الغدا ومين له نفس ياكل وأنا مش عارفه ابني بايت فين، كل ولا جعان».

تسرح بدور في حال ابنها وتعود من صمتها.

«بصي يا بنتي، سوي اللحمة دي كلها، كلها ما تخليش منها حاجة، اتغدوا وطلعي الباقي كله لله».

«كلها يا أمي؟»

«كلها يا بنتي، ربنا يفك الكرب بدعوات الغلابة والمحتاجين».

«حاضر يا أمي، وعامر بيكي وبحسك يا رب».

******

بعد أن ضاق الحال بشمعون وخفق في كل محاولاته لإيجاد

زيتون، ذهب إلى أطراف البلد ليجلس على ضفاف النيل محدثًا حاله:

«يا خضوب عايزة مني ايه؟ اطلعي لي عشان نتكلم، أنا عاوز ابني، اللي أنت تقوليه هنفذه بالحرف، بس رجعيلي ابني.

يا خضوب أنا سلمت خلاص، وعهدك وميثاقك سيف على رقبتي خلاص، بس رجعي لي ابني، رجعي لي ابني».

يستشعر شمعون بيد على كتفه ينتفض ملتفتًا خلفه ليجد السراب، ويعود بنظره من أمامه مرة أخرى، ليجد على مرمى البصر رجل مسن يرتدي جلباب أبيض ليتحقق من ملامحه.

«أبا صالح! أبا شوفت اللي حصل لي يابا، شوفت!»

«اللي حصل لك من جنس عملك يا شمعون، واللي منعته عنك أنت روحت له برجليك يا ابني».

«بس أنا فقت يابا، أنا فقت!»

«بس فقت متأخر، فقت لما...»

«لما ايه يابا؟ لما ايه؟»

«لما طريقك بقى كله دم، كله دم، والدم طال نفسك وغرقت فيه يا ولدي».

«سامحني يابا، الذنب مش ذنبي، ده الشيطان».

«شيطانك منك يا ولدي، أنت اللي فاتح بابك».

«أمي فين يابا؟»

«أمك مش مسامحاك في اللي منها، يا ابني».

«اللي منها! قل لها يابا، أنا ماليش ذنب».

عاد من حيث أتى علي الصالح تبخر من أمام شمعون تاركًا جملة أصمت أذنه:

«الذنب ذنبك يا ولدي، وأنت اللي فاتح الباب، أنت اللي فاتح الباب».

تلتف من حوله ضحكات خضوب بصوتٍ عالٍ، حاول شمعون سد أذنه والالتفات من حوله ليجد خضوب تجلس جواره.

«تصدق إنك راجل وسخ يا حجوج وجبان، أول ما علي صالح طلع لك نسيت العيش والملح اللي بنا، وقلت له مش أنا ده الشيطان، أقول لك أنا الشيطان فين وما تزعلش!»

انتفض شمعون ليقف من جلسته في مقابل خضوب صارخًا بوجهها:

«أبوس إيدك أنا عاوز ابني، أبوس إيدك».

«طب خلي بالك أحسن تقع في النيل، ولا ايه رأيك أزقك أنا عشان تحصلني؟»

«يا خضوب، يا خضوب أرجوكي، أنا خسرت أخرة مش عاوز أخسر دنيا».

«ارجع بيتك يا شمعون هتلاقي ولدك بعد ما تقعدوا وتتلموا على ترابيزة واحدة، وبعد الغدا هتلاقي ابنك ضناك، بس خليك فاكر كلامي كل اللي في البيت يتجمع وياكل معاك من أكلك، ساعتها ابنك هيرجع لك».

«ترابيزة ايه وأكل ايه ده ملعوب من ألاعيبك».

«ده اللي عندي، واللي عندي قلته، عاوز ابنك نفذ، مش عاوز دور عليه ومش هتلاقيه».

******

عاد شمعون منزله مسرعًا لينفذ ما طلب منه بالحرف لتنكشف الغمة ويعود ولده الصغير.

«ابني فين يا شمعون؟ ابني في رقبتك، أنا عاوزة ولدي».

«خلاص يا بدور، ابنك راجع يا بدور، أنا عارف هو فين ماتقلقيش، لمي العيال كلهم وبناتك وولادك ونسوانهم خلينا ناكل لقمه ونتلم زي زمان وأنا هجبهولك».

«نتلم زي زمان وناكل!

أنا عاوزة ابني يا حاج، أنا لا عاوزة أكل ولا شرب، أنا عاوزة ابني».

«اسمعي كلامي لأخر مرة يا بدور، ابنك عندي خلاص».

تحرك شمعون مسرعًا لغرفتي بنتيه صائحًا فيهما: «قوموا يا بنات، خلاص اخوكوا راجع بالسلامة، قوموا ناكل لقمة مع بعض زي زمان، اطلعي يا تومة انده... نسوان اخواتك واخواتك لازم

نتلم كلنا زي زمان».

التف الجميع حول طاولة الطعام بعد أن حضرنها هند وصابرة وتميمة، واكتفت ذات بالطبخ فقط.

بدأ الجميع تناول الطعام ويرأس المائدة شمعون، بعد أن وعدهم أن صغير العائلة زيتون سينام بحضن أمه تلك الليلة، وبعد أن انتهوا جميعًا من الطعام في حالة من الصمت، وبعد أن فرق شمعون من طبق اللحم أوسط المائدة حالفًا على كل فرد أن يكمل طعامه ممسكًا بقطعة من اللحم ذاججًا بها في فم بدور.

«تعدميني يا بدور، تعدميني لو ماكلتيش من إيدي الحتة دي، دي طرية زي الملبن».

«يوه يا حاج، مش قادرة خلاص، والله ما قادرة».

«تسلم ايدك يا محاسن، اللحمة زي الفل».

لم تنطق محاسن بكلمة، بل طوال الجلسة ظلت منهمكة بتناول الطعام، إلى أن انتهت من أكلها، ونظرت لشمعون بهدوء لتأتي بكلمات هادئة نافذة لصدره:

«عجبك الأكل يا شمعون؟ مسكرة اللحمة مش كده، ما هو زيتون ابنك طول عمره لحمه طري، بس عضمه كان ناشف قوي على ايدي، بقالي يومين بشفي فيه على السطوح لغاية ما سلخت الجلد خالص وكسرت العضم، ألف هنا عليكوا زيتون».

لم يستوعب جميع من على الطاولة، تصرخ بدور، ومن بعدها تفرغ هند ما بمعدتها، تلطم خدودها صابرة، تميمة تقف عن

الطاولة ترجع للخلف ممسكة بطنها إلى أن استندت على الجدار من خلفها، قام دهار وسنجاب ليمسكا السكين من يد بدور قبل أن يستقر في منتصف ذات، يقف شمعون عن الطاولة مخرجًا مسدس من جيبه ليلوح به في اتجاه ذات إلى أن فقد الوعي قبل أن تنفذ رصاصته بها.

******

«اهدي يا سارة وامسكي نفسك، ماما لما تفوق لازم تلاقينا على رجلينا، هي مالهاش غيرنا دلوقت، ولا احنا لينا غيرها، وأنت كمان اقعدي يا حبيبتي عشان رجليكي».

«مش قادرة يا هدى، مش قادرة، ماما بقالها شهر في غيبوبة، أنا خايفة ماتقومش منها، أنت ناسية الدكتور قال ايه، قال الأمر بإيد ربنا مش بإيد حد، يا رب، يا رب».

«ما هو عشان كده يا حبيبتي، ربنا كبير وربنا بينزل القضا وينزل اللطف معاه، ادعي ربنا وصلي، صلي يا حبيبتي».

خرج الدكتور من غرفة بدور لينادي على طقم التمريض ليلحقوه مسرعين للداخل، وبلحظات انقلب حال المستشفى رأسًا على عقب.

خرج مرة أخرى لينادي هدى وسارة.

«الحاجة فاقت، فاقت وطلبت تتكلم مع الظابط عشان تدلي بأقوالها».

«البقاء لله يا حاجة بدور».

«الحمد لله، أنا راضية بقضائه يا حضرت الظابط، راضية بقضائه، بس ابني حقه لازم يرجع، وحق علي الصالح وهدية لازم يرجع، وحق خضوب، خضوب حقها لازم يرجع».

تجلس بدور في غرفة المستشفى على السرير متصل بها جميع الأجهزة والمحاليل، في محاولة منها أن تعطيها سريان الحياة في أوردتها، يجلس بجوارها الضابط المسؤول عن التحقيق في مقتل ولدها.

«بصي يا حاجة، احنا لازم ناخد أقوالك، أنت الشاهد الوحيد اللي كان موجود في مسرح الجريمة، وبناتك الاتنين بره هيتجننوا ويتكلموا معاكي، بس الدكاترة سمحوا بساعة واحدة زيارة، وأنا استأذنتهم ناخدها في التحقيق عشان نرجع حق ابنك طاهر وحق جده وجدته، ساعديني وماتتعبيش نفسك في تفاصيل ممكن ماتفدناش، خلينا الساعة دي نتكلم فيها في أخر ساعة حصلت في بيت الحاج شمعون».

«أنا كويسة يا بيه وعاوزة أجيب حق طاهر وحق اللي ماتوا كلهم».

«طيب، أنا اسمي حازم، اعتبريني زي ابنك وقول لي اللي أنت فاكراه».

«شمعون فين يا ابني؟»

«شمعون من وقت الحادثة ناس لقوه مرمي في المدافن، ولما لقوا هدومه كلها دم مسكوه وسلموه أقرب نقطة منها، وبعد

التحقيقات أثبت عدم أهليته، وبيتكلم على جن وأسماء غريبة زي زيتون ودهار وتميمة وذات وسنجاب، وبيقول دول ولاده وإن بنته محاسن هي اللي قتلت زيتون، وتم إيداعه في مستشفى الأمراض العقلية لحين انتهاء التحقيقات، الصدمة كانت أكبر منه».

«اللي ماتوا دول كلهم ماتوا بذنب خضوب، ده ذنب خضوب يا ابني، وربنا انتقم مني في ولدي عشان سكت».

«أنا هحكي لك يا ولدي كل حاجة، من أول ما سمعت عنهم لغاية ما دخلت وسطيهم وبقيت واحدة منهم».

ظل حازم بين شتات فكرين، هل يترك بدور تسرد كل ما تريد أن تفرغه بأذنه، أو يوجه لها أسئلة محددة يوم وقوع الحادث للوصول للجاني خوفًا من عودتها مرة أخرى للغيبوبة قبل الوصول للجاني كما حذره الأطباء، إلى أن استقر على رأي واحد أن يوجه دفة الحوار للأسئلة الأهم.

«قولي لي الأول، يوم الحادثة مين كان موجود في البيت غيرك أنت وهدية وعلي الصالح وابنك طاهر؟»

«شمعون».

«شمعون كان موجود وقت الحادثة؟»

«شمعون كان معايا في البيت، والبنات كانوا في الجامعة».

«وبعدين؟»

«شمعون دخل عليا من برا وطاهر كان نايم على رجلي».

تسرح بدور لترى المشهد أمامها كأنه يحدث الآن.

«أنت جيت يا شمعون؟ جيت بدري ليه؟»

«الواد ده ابن مين؟ الواد ده مش ابني، مش ابني».

«اسكت يا شمعون ماتقولش الكلام ده قصاد الواد، أنت اتجننت يا شمعون، اتجننت وحالك كل يوم في النازل».

تهجم شمعون على بدور ممسكًا برأسها من خصلات شعرها ليسحلها جرًا على الأرض، ليبكي طاهر ممسكًا بأسفل جلباب أمه.

«الواد ده مش شبهي ولا لوني، وأنا عارف إنه مش ابني».

«واللي قال لك إنه مش ابنك، ماقلكش يبقى ابن مين؟

حرام عليك كل يوم ضرب وقلة قيمة عشان تخاريف في عقلك».

«خضوب قالت لي إنه مش ابني».

«وخضوب ماقلتلكش يبقى ابن مين؟»

خرج الحاج علي الصالح من غرفته ممسكًا بعصاته ليلكز بها كتف ابنه شمعون:

«مراتك أشرف من الشرف يا ابن الكلب، وأنت طول ما أنت مسلم نفسك للشياطين والجن هيلعبو بيك».

أمسك طرف العصا من أبيه علي الصالح ولم يستجب لصراخ ابنه

طاهر وتوسلات بدور، وانهال بها على رأس أبيه إلى أن أسقطه أرضًا لضعف جسده النحيل، وسحبه من جلبابه وهو فاقد الوعي ليدخله غرفته ويلقيه على السرير، حيث تجلس أمه القعيدة.

«منك لله يا ظالم، يا ظالم منك لله، هتموت أبوك، هتموت أبوك، قلبي غضبان عليك، قلبي غضبان عليك، وطالعلك ولادك من تحت رجلك واللي بتعملوا فينا دين في رقبتك».

لم يستجب لصرخات أمه، بل بالعكس ازداد فقدانه لصوابه ليلحق ببدور بعد أن فتحت الفارندة المطلة من الصالة لتستنجد بالمارة والجيران، ولكنهم اعتادوا سماع الصراخ الدائم من منزله، لذا لم يأت منقذ، وبتلك اللحظات تخفى طاهر أسفل طاولة الطعام، أمسك شمعون بدور من شعرها ليدخلها غرفتها وأحكم غلق الباب وأخذ المفتاح ليزجه بجيبه، ودخل المطبخ وسحب سكينًا، لتسمع بدور من خلف الباب أصوات تقطيع أوصال ابنها، والحاج علي صالح والحاجة هدية دون استجابة منه لتوسلاتهم.

تصيب بدور نوبة من ضيق التنفس، يحاول حازم تهدئتها في وسط ذهوله من قوة تحمل تلك المرأة مما رأت من شمعون.

«أنا كويسة يا ولدي، أنا عاوزة حق اللي ماتوا كلهم».

«طيب مين خضوب؟ والتعويذة المدفونة تحت البيت؟»

«خضوب دي البنت اللي قتلها شمعون وفضلت مرافقاه روحها لغاية ما خدت عقله».

«قتلها».

«خضوب العلاوي بنت الحاجة سعدية خالته، أمه الحاجة هدية حكت لي إنه قتلها».

«قتلها ازاي؟»

«معرفش، بس كنت دايمًا أدخل عليه ألاقيه بيكلم حاله، واتصنت عليه كأنه بيتكلم مع حد أدخل عليه ألاقيه لحاله، سألت امه الحاجة هدية الله يرحمها قالت لي إنه قتلها بالغلط، وإنها بنت خالته وأبوها كان من المغرب وعاملها تحصينه ولبساها في دلاية في سلسلة مبتقلعهاش من رقبتها، وعليها خدام، ولما أذاها الخدام لبسوه من صغره، وفضلت مرفقاه طول العمر واحتارت بيه لغاية ما انصلح حاله، واشتغل في الرخام وربنا رزقنا بهدى وسارة وطاهر، بس فضلت تحوم حواليه في أحلامه».

«وطبعًا قضية خضوب اتسجلت ضد مجهول».

«اللي أنا عارفاه إن محدش يعرف هي ماتت ازاي، ولا هو قتلها ازاي، هما لقوها غرقانة في النيل، وأمها الحاجة سعدية كانت ست كبيرة عجوزة، ولا عندها راجل يسندها ولا يجيب حق بنتها».

«امال مين الأسماء اللي بيقولها ويرددها وبيقول إنهم ولاده».

«يعلم ربنا بحاله، بس احنا ربنا كرمنا بهدى وسارة وطاهر الله يرحمه، الباقيين دول ولاده في عقله النجس ولا ولاده من تحت الأرض مش عارفة يا ولدي، أنا عشت معاه أسوأ أيام حياتي وساكتة وراضية عشان ولادي، لغاية ما ولادي ضاعوا بسببه، منه لله، منه لله، حق اللي ماتوا يا ولدي، حق اللي ماتوا».

«طب الحاج علي الصالح وهدية أنت شايفة إن في دافع إنه يقتلهم ويمثل بالجثث بتاعتهم بالوحشيه دي؟»

«يا ولدي اللي اعرفه قولتهولك، بس طول عمري بسمع إن علي الصالح كان مخاوي زمان، في حكايات أما هدية كانت بتحكيها للبنات الصغيرين بناتي، معرفش الصدق من الكدب منها، بس سمعت كتير حكاوي عن الموضوع ده».

كانت تلك أخر كلمات نطقتها بدور قبل أن تعود لعالمها مرة أخرى، لتسقط في قاع غيبوبة من جديد.

«حازم بيه، سيادتك عارف القانون، واللي حضرتك بتطلبه ده لا يمت للقانون بصلة».

«دكتور فرجاني، أنا عشان رجل قانون بطلب من حضرتك إني أقعد معاه بصفة ودية».

دكتور فرجاني، مدير مستشفى الأمراض العقلية المحتجز بها الحالة شمعون علي الصالح،

شخص سمين، سمج مكتظ الجوانب، أسمر اللون، لم تجد الدهون مفر منه فسقطت من كل جوانبه، رأسه أصلع به ندبات من أثر موس مزين رخيص، أسفل رأسه ثنايات من الشحوم تلتحم بقفا مضغوط على كتفين مكتنزين.

«لا ودية ولا سنية، طب والله حلوة يا حضرت الظابط».

«مممممم، حلوة فعلًا، بس امك أحلى».

قالها حازم متمتمًا لتصل لدكتور فرجاني حروف متلعثمة، ليضع القلم الممسك به في أذنيه ويحفرها ليخرج القلم مرة أخرى ماسحًا بيده كتلة الشمع العالقة به.

«بتقول حاجة يا حازم بيه؟!»

«بقول لك حلوة، حلوة سنية».

«المطلوب دلوقت يا باشا عشان أنت معطل مسيرة العمل في مصلحة حكومية، أقول لك هات لي إذن من النيابه لفتح تحقيق مع الحالة وأنا عنيا ليك».

«ما أنا سبق وقولت لحضرتك، وحضرتك سيد العارفين، أنا عاوز أدخل له بشكل ودي».

استطاع حازم بفارغ الصبر ابتلاع السمن السائل من سماجة الدكتور فرجاني ليعطيه برستيجه قدر المستطاع فلربما استطاع كسبه.

«ما هو عشان أنا سيد العارفين، وأنا عارف وضع شمعون، وإن أي كلمة هيقولها دلوقت هتبقى ضده، الحالة بتعاني من هلاوس شديدة واسكيزز واضحة، وكل ده موثق ومرفق بالتقارير في محضر الكشف الطبي المبدأي».

«بص يا دكتور فرجاني يا كبير الدكاترة، فاكر حالة المدعوة هالة؟»

«هالة مين؟»

«هالة، هالة اللي قتلت ابنها من شهرين وعدوي التمرجي سخن عليها واغتصبها عندك في المستشفى وقتلها، وأهلها عشان ناس على قد حالهم قالوا كفايانا فضايح وخدوها وادفنت واتأيدت حالة انتحار.

أنا بقى عاوز ملف هالة عشان في أقوال جديدة في القضية، وعدوي بعد ما هرب عرفنا نجيبه يا باشا».

استقرت كلمات حازم بوسط عقل فرجاني السمين، ليهرش رأسه ويرفع سماعة الهاتف من أمامه.

«هات لي يا ابني حالة ٩٣٠ في المكتب».

«في الأول والأخر يا حازم بيه احنا بنكمل خط العدالة مش ضده، وما دام مقابلتك بشمعون لصالح القضية أكيد، أكيد أنا هسهل لك ده بس بشكل استثناء».

«هي استثناء دي أخت البت ثناء يا باشا، لا حلوة، حلوة ما تنكرش».

«حلوة منك يا حازم باشا».

خرج دكتور فرجاني ليترك حازم مع شمعون.

«اقعد يا شمعون، اقعد».

تلفت شمعون من حوله واقترب من أذن حازم هامسًا:

«وطي صوتك عشان ما يسمعوش».

«هم مين دول؟ احنا لوحدنا».

«لا خضوب بعتنا خودامها ورايا عشان يراقبوني».

«اقعد واحكي لي اللي حصل كله».

«ابني مات، مات وأكلته، أكلته.

أخته دبحته وسوته وكلناه، كلنا كلناه زي ما خضوب طلبت، هي ضحكت عليا يا باشا وقالت لي لازم تاكلوا من الأكل عشان ابني زيتون يرجع، بس ماكنتش اعرف إنها وسوست لذات عشان تقتله، ما كنتش اعرف، ما كنتش اعرف».

«اهدى يا شمعون، وقل لي قتلت طاهر ازاي؟»

«طاهر! طاهر مين؟»

«طاهر ابنك».

«يا باشا أنا معنديش طاهر، تقصد زيتون، زيتون ابني الصغير، ما قتلتوش، ذات بنتي اللي قتلته بقول لك».

«طب قتلت أبوك وأمك ازاي؟»

«بالعقرب».

«عقرب ايه؟»

«خضوب بعتت لي صندوق صغير فيه عقرب، وقالت لي أحط سمه في الميه عشان يموتوا، عشان تطلع الكنز».

«كنز ايه؟»

«الكنز اللي علي الصالح دفنه تحت البيت عشان يربط شموع».

«اتكلم وقول الحقيقة، احنا عرفنا كل حاجة وفتحنا ملف خضوب».

«وطي صوتك لا تسمعك».

«خضوب بنت خالتك اللي قتلتها في البحر، قتلتها ازاي؟»

«ما قتلتهاش، ما قتلتهاش دي كانت لسه معايا».

ارتفع صوت شمعون ونباحه ليدخل فرجاني والتمرجي من جديد:

«رجع الحالة دي يا ابني للعنبر، حازم بيه اللي أنت بتعمله ده مش قانوني».

«ماشي يا دكتور فرجاني، كلها أيام وراجع لك تاني بإذن النيابة للتحقيق بشكل رسمي».

******

«بص بقى يا حزوم، أنا شايف إن القصة كده بخ خلاص، الراجل ده مخبول وكل دي تهيئات».

يشعل حازم سيجارته ويرتشف من فنجان القهوة أمامه ويجلس ناظرا لزميله عمر عبد الشافي، فهو بالنسبة له ليس مجرد زميل دفعة أو رتبة، بل صديق الصغر، وتحولت علاقتهما لتوطدها

علاقات زوجاتهما الآن.

«طب وخضوب؟»

«يا باشا خلصانة، إحساسه بتأنيب الضمير تجاهها خلاه يتخيلها وتوسوس له وتحدد مصيره، يعني كل دي تخاريف في عقله».

«طب ده بالنسبة لخضوب، وبالنسبة لأولاده زيتون وتميمة وذات ودهار وسنجاب».

«نفس الموضوع، شمعون ده واضح إنه مريض نفسي درجة أولى من سنين».

«عمومًا أنا هقوم أروح، أنا داخل على ٤٨ ساعة صاحي، راسي هتنفجر».

«روح يا باشا وأكد على ندى، سميحة قالت لي إنهم اتفقوا هنخرج الأسبوع ده».

«ماشي يا ريس سلام مؤقت».

«سلام مؤقت، وافصل، أفصل شوية لا خضوب ولا شمعون هينفعوك لما تقع من طولك يا حضرت الظابط».

«ما لك يا حازم؟ أنت مش طبيعي ليه من ساعة ما مسكت قضية طاهر دي».

«مش عارف يا ندى، بس المشكلة كلها لما تدخلي قضية وأطرافها أم في غيبوبة وأب عقله اتلحس، ويا إما شمعون اللي قتل ومخه راح، يا بدور اللي قتلتهم وبرضه مخها راح».

«يا حبيب ندى، أنت قدها وأكتر منها».

«أنا تعبان قوي، دماغي هتنفجر مني».

«طيب، قوم خد دوش وادخل سريرك، وأنا هجيب لك العشا لحد عندك في السرير».

«ربنا يخليكي ليا، أنت أكتر حد برمي همومي على كتفه، وأكتر حد بيشيل همي».

«همك وحدك، همك وهم ضحاياك كمان، ربنا يخليك ليا، آه صحيح أنا اتفقت مع سميحة عاوزين ننزل شوبينج الويك اند ده، ايه رأيك؟»

«مع احترامي الكامل ليكي، واعتراضي على كلمة ويك اند لأن الظابط الكائن الذي لا يتمتع بهذه الصفة كسائر الكائنات من حوله، بس حاضر يا ستي هظبط مع عمر وأول الوقت ما يسمح هننزل، حاضر».

دخل حازم لسريره بعد حمامه الدافئ منتظرًا زوجته ندى لتحضر له وجبة العشاء، وظلت رائحته الشهية تداعب أنفه إلى أن غاص بالنوم.

أنهت ندى مهمتها بالمطبخ لإعداد الطعام الشهي لزوجها، ونظرت في الساعة لتجد عقربها اقترب للعاشرة مساءً، فكان قرارها أن تتركه لنومه العميق وأخذت ترتب ملفاته على المكتب، لتجد ملف طاهر شمعون، اعتدلت في جلستها على كرسي المكتب لتفتح الأباجورة بجوارها وتفتح الملف لتتصفح وتقرأ كما

اعتادت مع زوجها لتشاركه حسها الأنثوي في قضاياه.

أفاق حازم من نومه بيد حنون تداعبه من تحت غطاءه ليضحك ويبتسم لندى:

«مممم، حبيبتي، ياه، هي الساعة كام دلوقت؟»

«الساعة واحدة».

«ياه! سبتيني نايم كل ده ليه يا ندى؟»

«أنا مش ندى، أنا خضوب».

«أنت فتحتي القضية، قولي لي رأيك بقى».

«قتلني، شمعون قتلني».

«أثرت فيكي قوي كده!»

«أنا عاوزة حقي وحق أمي».

اعتدل حازم في سريره بعد أن سمع صوت ندى مختلف بنبرة قوية، لتقف من جانبه وتمشي لتصل إلى المرآة المقابلة للسرير، مرت تلك اللحظات ساعات على حازم وهو يرتعد ليشعر بسخونة بجسده وقشعريرة تسري به، لتوقظ كل منبت لخصلات جسده مرددًا: «بسم الله، بسم الله، ما لك يا ندى؟ مالك؟»

تقف ومن خلفها المرآة وتتبخر من أمامه، يستند بيديه محاولًا رفع جسده من السرير لكنه لا يستطيع التحكم بأطرافه، وكأنه يسبح في بحر من الزبد ينادي على ندى مرة أخرى بصوتٍ خافت

دون أن يأتيه الرد.

أضاء التلفاز من تلقاء نفسه أمامه ليجد امرأة عجوز ترتدي جلباب أسود ممسكة بعصا خشبية ملوحة بها في وجه امرأة أمامها.

«لمي ابنك يا هدية عن بتي، أنا بقول لك اهو، الواد كبر وعوده طول، بقى شاب وأنا وبتي ماحلتناش غير سمعتنا في البلد، وولدك بيدايقها في الرايحة والجاية».

«يا سعدية أنت اتجننتي، خضوب دي بنتي قبل ما تبقى أخته، شمعون داخل عليكوا عيل صغير يا سعدية ده أنت إلى مربياه، وخضوب اللي شايلاه على كتفها طول عمرها من يوم ما عشنا معاكوا».

«كانت شايلاه قبل ما يبقى راجل يا هدية، ولدك بقى راجل، فارقونا بقى وبكفايا يا هدية».

تعود الشاشة للسواد مرة أخرى، ليأتيه صوت بدون صورة، تلك المرة يقوم من مكانه ليذهب للشاشة ويجلس على ركبتيه ويقرب أذنه من الشاشة أكثر.

«أنا مش فاهمة، أنت واخدني على فين يا شمعون؟»

«ما أنا قلت لك يا خضوب، خالتك تعبانة وقالت لي هات لي خضوب».

«هي فين يا شمعون؟ طيب البيوت خلصت واحنا ماشين على البحر، وأمي قالت لي ما ابعدش لحالي».

«أنت مش لحالك، أنا معاكي يا خضوب».

«يا نهارك أسود، ابعد إيدك عني، ابعد إيدك أنت اتجننت يا شمعون، أنا أختك يا ابن الكلاب، ده أنا كنت بشيلك على كتفي».

يأتيه صوت صرخات خضوب عاليًا وصوت ارتطام وتمزيق ملابس، ليأتي صوت خضوب:

«أبوس إيدك ما تضيعنيش، هقول لأمي وخالتي وهفضحك يا شمعون».

لحظة سكون، يدقق بها حازم النظر للسواد من أمامه في الشاشة ويأتيه صوت ارتطام كأنه ارتطام جسم صلب بجسم بشري.

فجأة تضيء الشاشة مرة أخرى من أمام حازم، ليتلقى صدمته، يرى شاب لم يتم عقده الثاني ممسكًا بشابة ممزقة الملابس، يضيق الخناق على رقبتها بسلسلة ترتديها، مكممًا فمها، عابثًا بجسدها، إلى أن ارتفعت روحها من أثر الاختناق، قام سريعًا لينزع بنطاله عنه ويتناوب اغتصابها على ضفاف النيل، إلى أن أفاق عقله بعد أن ارتعش جسده ليفرغ ما به من شهوة داخلها، ليقف مرة أخرى ويرتدي بنطاله ويزيحها بقدمه إلى أن أسقطها في النيل.

انهالت دموع حازم مما رأى داخل التلفاز، لتطفأ إضاءته مرة أخرى، وضع رأسه بين كفيه ليأتيه صوت صراخ عالٍ من التلفاز، رفع رأسه ليدقق السمع.

«ابنك قتل بنتي يا صالح، دي أخرتها يا صالح، ياما قولت فارقونا

وارحلوا، ابنك اللي قتلها يا صالح».

«اخرسي يا سعدية، اخرسي، هتودي ولدي في داهية اللي ماحلتيش غيره».

يأتيه صوت صراخ مكتوم، تضيء الشاشة من جديد ليرى رجل ممسكًا بفم المرأة العجوز ناهيًا إياها أن تنطق بكلمة.

لم تتحمل الحاجة سعدية كتم أنفاسها بيد علي الصالح، الذي تركها جثة هامدة دون قصد.

انطفأ التلفاز للمرة الأخيرة.

تدخل ندى على حازم لتجده قابعًا على الأرض منكمشًا ممسكًا رأسه مغمضًا عينيه.

«ما لك يا حبيبي؟ ايه عمل فيك كده؟!»

فتح عينيه ونظر لها وعيناه ممتلئة بالدموع، لتضمه إلى صدرها وترفعه عن الأرض، ليجلس على طرف السرير.

«أنت كنت بتحلم يا حبيبي، بس أول مرة صوتك يبقى عالي

كده، أنا سبت اللي في ايدي جيت لقيتك قاعد كده».

«بحلم! بحلم ايه، أنت ماجتيش من شوية هنا؟ طب... طب التلفزيون ده ماشتغلش؟»

«تلفزيون ايه يا حبيبي سلامتك، ما أنت عارف إن التلفزيون ده بايظ!»

«آه صحيح بايظ، بس ازاي واللي شوفته!»

«شوفت ايه يا حبيبي؟ قوم طيب، استعيذ بالله من الشيطان، وتعالى نتعشى واحكي لي».

نهض حازم ليخرج إلى طاولة الطعام، يشعر بصداع يخبط مؤخرة رأسه، تضع ندى الطعام بهدوء وتجلس أمامه تنظر له في سكون وابتسامة هادئة.

«أنا مش مسامحة في دمي ودم أمي، أنا عاوزة حق اللي ماتوا يا حازم».

أتمت ندى جملتها وهي تنظر له بعينيه.

قد يتبع في يوم من الأيام، إن زارتني روح خضوب من جديد.

إهداء

إهداء لتلك النفوس التي تمتلك عقول

بلا جدران.

إهداء

لي،

أنا فقط من أستحق الإهداء،

أنا وحدي من تحمل تلك الروح بغرفته ليسطر تلك الكلمات.

إهداء

إلى كل من نعتونا يومًا بالفشل،

ليصنعونا الآن.

إهداء

إلى كل من بحث عن ذاته داخل تلك الرواية أو حتى داخل إحدى كتاباتي،

اطمئن لم يحن الوقت لسطر حكايتك،

أعدك إنه لقريب وستحمل يوم ذاك اسمك لتصبح بطلها.

شكر خاص

لأبي، لأمي،

وكل من دمه من دمي،

شكر لكل أصدقائي،

الأخوة منهم والأعداء،

فلكل منهم دوره،

فشكرًا لكل من قام بدوره بأكمل وجه تجاهي.

رسالة حب

إلى أبنائي

بيجاد وعبد الرحمن،

إن كنت في الرفيق الأعلى الآن وصعدت روحي للسماء،

لا تخف يا بيجاد، كلماتي ابقى بين يديك الآن،

يـومًا أتـى لي وأنا جالس وسط كتاباتي همس بأذني: «بابا أنا سمعت إنك بتكتب كلام حلو، خايف لما أكبر واعرف أقراه وافهمه يكون ربنا خدك فوق عنده، بس أنا بحبك يا بابا، مش عاوز ربنا ياخدك فوق».

نيللي، بحبك.